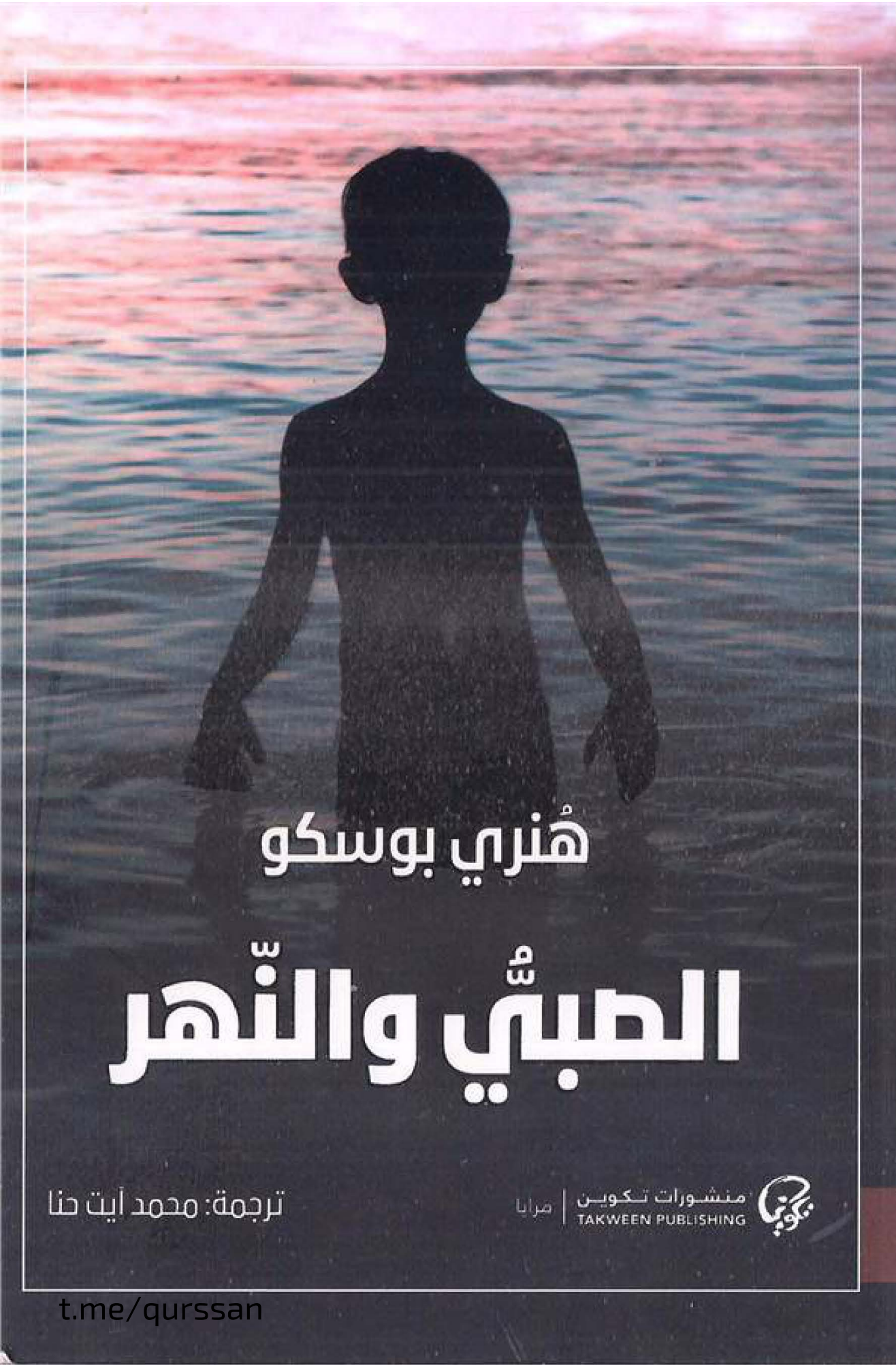

هُنري بوسكو

الصبيُّ والنّهر

ترجمة: محمد آيت حنا

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

t.me/qurssan

t.me/qurssan

هُنري بوسكو

الصبيُّ والنّهر

رواية

ترجمة

محمّد أيت حنّا

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

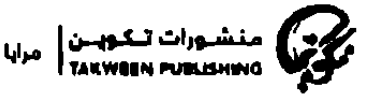

t.me/qurssan

الكاتب: هُنري بوسكو
عنوان الكتاب: الصبيُّ والنّهر
ترجمة: محمد آيت حنا

العنوان باللغة الأصلية: L'enfant et la rivière
الكاتب: Henri Bosco

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-67-0
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2020
2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

©Editions Gallimard, Paris, 1953

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
publishing@takweenkw.com
takweenkw
www.takweenkw.com
@takweenKw

t.me/qurssan

إلى

فرانسواز

دومينيك

دانيال شابا

المؤلف

إلى

سارة وندى

المترجم

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الجزيرة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

في سنّي طفولتي الأولى، كنّا نسكنُ بالرّيف. ولم يكن البيت الذي يأوينا سوى أرضٍ مستأجرة معزولةٍ وسط الحقول. هناك كنّا نعيش في سلام. وكان والداي يأويان في بيتها عمّةٌ من أقارب أبي، العمّة مارتين.

كانت امرأةً على النّمط العتيق، تعتمر قلنسوة البيكيه[1]، وتلبس فستاناً بطيّاتٍ، وتُعلّق دوماً في نطاقها مقصاً فضيّاً. كانت تتحكّم في الجميع: في النّاس، والكلب، والبطّ والدّجاج. أمّا أنا فكانت توبّخني من الصّباح إلى المساء، مع أنّي لطيفٌ ومطيع. لا فرق! كانت توبّخ. ذاك أنّها كنت تحبّني خفيةً، فتظنّ أنّها بتوبيخي تكتم عاطفةَ الحبّ التي يتفجّرُ بها كيانُها كلّه، عند أوّل مناسبة.

حوالينا، لم تكن تُرى إلا الحقولُ، وذُرى السّرو الطّويلة، وزروعٌ صغيرة، وكوخان أو ثلاثة معزولة.

وكان هذا المنظر الرّتيب يحزنني.

---

(1) قبّعة من نسيج قطني ولها خيطان يُربطان تحت الذّقن.

t.me/qurssan

لكن فيما وراء المنظر [الرّتيب]، كان يجري نهرٌ.

كثيراً ما كنّا نتحدّث عنه في أماسي السّهر، خاصّة في فصل الشّتاء، لكنّني لم أرَه قطّ. كان يضطلع بدورٍ كبيرٍ في حياة العائلة، بسبب الخير والشّر اللذين يصيبان زروعَنا منه. أحياناً يخصّبُ الأرضَ، وأحياناً يفسدها. إذ كان، على ما يبدو، نهراً عظيماً وقوياً. وفي فصل الخريف، وقتَ هطول الأمطار، كانت مياهه ترتفع. نسمع هديرها من بعيد. أحياناً يتدفّق من فوق حواجز الرّمل ويُغرق الحقول. ثمّ، يعود أدراجه، تاركاً خلفه رواسب طينيّة.

وفي فصل الرّبيع، حين تذوب ثلوج جبال الألب، تأتي مياهٌ أخرى. تتقوّض الحواجز تحت ثقلها، ومرّةً أخرى تصير المروج كلها، على مدّ البصر، بركةً واحدةً. لكن صيفاً، وبفعل الصّهد اللاهب، يتبخّر النّهر. وإذّاك تبرز جُزيراتٌ من الحصى والرّمل معترضةً مجرى التيّار، ومُطلِقةً دخاناً تحت حرارة الشّمس. ذاك على الأقلّ ما يُردَّدُ. أمّا أنا فلم أعرفه إلا بالسّمع.

لقد حذّرني أبي:

- اِلعب حيث شئتَ، واذهب حيث شئتَ. ليس الفضاء ما ينقصنا هنا. لكنّني أحذّرك من أن تقرب جانب النّهر.

وأضافت أمّي:

- في النّهر، يا صغيري، ثمّة حفرٌ خفيّة يغرق فيها المرء، وثعابين بين نبات الخوص، وغجرٌ يجوبون الضّفافَ.

t.me/qurssan

ولم أكن أحتاج أكثر ممّا سبق لكي أحلمَ بالنّهر ليلاً ونهاراً. حين كنت أفكّر فيه، كان الخوفُ يرجّفُ ظهري، لكن تتستبدّ بي رغبةٌ حارقةٌ في أن أعرفه.

وبين الفينة والأخرى كان يزورنا صيّادٌ. رجلٌ طويل القامة، نحيلٌ، وجهه طويلٌ ورقيق. وعينه متوقّدة، ماكرة. كلّ ما فيه يشي بالمرونة والقوّة، ذراعاه اللتان تملؤهما العُقد، وقدمه المتقرّنة، وأصابعه الرّشيقة. وكان ينبثق كظلٍّ، من دون أن يحدث صوتاً.

يقول أبي:

- ها بارغابو. إنّه يحمل إلينا سمكاً.

وبالفعل.

يضع بارغابو سلّةَ أسماكٍ برّاقةٍ على طاولة المطبخ. الأسماك تبهرني. وسط الطّحالب تلمع بطونٌ فضيّةٌ، وظهورٌ مزرقّة وزعانفُ شوكية.

كانت تلك حيوانات مائية قد خرجت لتوّها من النّهر.

- كيف تستطيع اصطيادَ مثل هذه القطع الجميلة يا بارغابو؟

فيجيب بارغابو مراوغاً أبي:

- إنّ الرّبَ رحيمٌ بالفقراء يا سيّدي بوكارو، ثمّ إنّي أعرف الصّنعة.

t.me/qurssan

وما كنّا أبداً نفلح في جعله يقول المزيد.

ذات يومٍ وكنتُ وحيداً بالبيت، ظهر بارغابو، ظهوراً غير متوقّعٍ، كعادته. كان يحمل في طرف شصٍّ سمكةَ شابلٍ هائلةً.

قال لي:

- هذه لك، خذها!

وضع السّمكة عند ركن الطاولة.

ثمّ نظر إليّ نظرةً غريبةً وهمس:

- صغير، يا صغير، إنّ لك سحنةً جميلةً، سحنة صيّاد. هل اصطدت سمكاً من قبل؟

- كلاّ يا سيّدي بارغابو، ممنوع عليّ الاقتراب من النّهر.

هزّ كتفيه.

- طيب! لكن إن رافقتني، سأريك المناطق الجميلة التي لا يصلها أحدٌ، خاصّة منها الجزر.

ومن يومها جفاني النّوم.

كثيراً ما كنت، ليلاً، أفكّرُ في تلك المناطق الرّائعة، المتوارية في قلب الغابة، على ضفاف تلك الجزر التي لم يصلها أحدٌ، باستثناء بارغابو.

أحياناً أخرى كان بارغابو يريني شصوصاً جميلة من الفولاذ الأزرق، أو قطع فليّن حسنة الصّنع.

t.me/qurssan

كان بارغابو رجلاً عظيماً، وكنت معجباً به. ومع ذلك كانت عيناه الرّماديتان تثيران في نفسي الفزع، لذا ظللت أخفي مودّتي له في قرارة نفسي.

في حضوره كان ينتابني شيء من خوفٍ؛ وفي غيابه كنت أتحسّرُ عليه. وحين أسمع وقع خطواتِ صندله في البهو، يتسارع نبض قلبي. وسرعان ما تنبّه هو إلى الاهتمام الذي يثيره في نفسي شخصُه. لكنّه كان يتعمّد تصنّع لامبالاةٍ تعذّبني. أحياناً كان يغيب خمسة عشر يوماً. فأصير مستثاراً. تستبدّ بي رغبةٌ هوجاءُ في أن أركض حتّى النّهر، لكنّي كنت أخشى والدي. فوالدي لم يكن يتساهل.

ما يزال الفصل شتاءً: الطّقس بارد، والرّيح تعوي، ومن الحماقة أن يجوب المرء الرّيف. فالمرء يشعر بأنّه بأفضل حالٍ حين يجلس أمام النّار، ويمكث بقربها. لكن حين يحلّ الرّبيع، ترِقّ الرّيحُ، ويروق الجوّ، فيحتاج المرء إلى أن يتحرّك ويستنشق الهواء. وتلك حاجةٌ تتلبّسني مثلما تتلبّس الجميعَ. إنّ رغبة الإفلاتِ حارقةٌ، لدرجة أنّي أرتجف منها رعباً.

إنّي عرضةٌ، على الدّوام، لأن أرضخ، ذات صباحٍ جميل، إلى تلك الرّغبة، وأنطلق في المغامرة. لم تكن تنقصني إلا الفرصةُ.

ثمّ لاحت الفرصة. وهاكم كيف:

اضطرّ والداي إلى الغياب بضعة أيّام. وبالطّبع في غيابهما كانت العمّة مارتين هي الآمرة في المنزل. لقد أسلفتُ أنّ العمة مارتين كانت امرأةً متسلّطةً، لكن ما إن تبقى بمفردها معي حتّى أُمنح

t.me/qurssan

كامل الحريّة. فهي نفسها كانت تريد أن تكون حرّةً؛ وهل كان بوسعها أن تكون كذلك وهي تراقبني ليلاً ونهاراً؟ من يضطهد قريبَه، إنّما يضطهد نفسَه. كانت العمّة مارتين تدرك ذلك، فكانت إذن تترك لي الحبل على الغارب، لتستطيع أن تحبَّ في المنزل كما تشاء.

لقد كانت تحبُّ. تحبّ في المنزل من أسفله إلى أعلاه. تحبُّ نهاراً؛ تحبُّ ليلاً؛ تحبُّ فجراً؛ تحبُّ في الغسق. ودائماً تحبّ خبباً بالكاد يُستَشعرُ، خبباً بأطراف أصابعها كأنّما بخطى فأرٍ. حين يكون والداي في المنزل، تظلُّ هادئةً، لكن ما إن يغيبا حتّى تنطلق إلى الحَبِّ. لا تعود تُرى؛ لكن يتناهى إلى الأسماع صوت تنقّلها من غرفة إلى غرفة. تارةً تتوغّل في ظلمات القبو؛ وحيناً تتوارى في حجرة التخزين.

ما كانت تصنع؟ الله وحده يعلم! كانت تُسمَع أصواتٌ غامضةٌ، يهتزُّ الخشبُ، يسقط صندوق بصخبٍ. ثمّ يخيّم الصّمت. لكن من بين كلّ المقامات التي يوفرها بيتنا العتيقُ، كانت العمّة مارتين تفضّل العليّة. كانت تصعد إليها كلّ صباح، وتمكث فيها حتّى تحلّ أول ظلال المساء. كانت العليّة مأواها الأثير، فردوسُها. كانت تَصُفُّ فيها حقائب عتيقةً مسمّرة بالنّحاس ومغلّفةً بوَبر الماعز. حقائب عمرُها قرنٌ. كانت مكدّسة بملابس قديمة: سترات مزيّنةٌ بزهورٍ، صدريات من السّاتان[1]، دانتيل مصفرّ، أثوابٌ مطرّزة، نعالٌ بأحزمة فضيّة، وأحذية طويلة لمّاعة. وفساتين، وأيّ فساتين!

---

(1) نسيج أطلس.

t.me/qurssan

من كلّ حريرٍ ورديّ، بجوانب برّاقةٍ، وترترٍ ذهبٍ، وشرائطَ دقيقة، برّاقة، أرجوانية! ألوانٌ باهتةٌ قطعاً، تشي بالبلى، لكنّها كانت تتمتّع بسحرٍ وأيّ سحر! إذ كانت ما تزال مزهرةً بأريج الخزامى والتّفاح. وكنت أهيم بها. ولم تكن تلك العجائبُ الوحيدة! صورٌ عائليةٌ وقورٌ قد عُلّقت على مساميرَ. وفي رُكنٍ تراكمت الأواني المزيّنةُ بالرّسوم. وشمعدانان فضيّان موضوعان على صندوق من أبنوس. كتبٌ مجلّدةٌ تتناثر على الأرضية الخشب بين ورقٍ مصفرٌ تتّخذه الجرذان وكراً. ثمّ أخيراً، على السّقف عُلّق من رأسِه وذيلِه تمساحٌ محشوٌّ، هو عطيّةٌ من عمٍّ ملاّح يسمّى العمّ هانيبال.

وحين كانت العمّة مارتين تصعد إلى العليّة، ما أظنُّ قوّةً تستطيع سحبها منها. كانت تغلّق على نفسها بالمفتاح، ولم يكن يحقّ لي أن ألحق بها.

كانت تقول لي:

– اذهب لتلعب في الحديقة. ينبغي أن أرتّبَ الملابس القديمة.

وكنت أتفهّمُ الأمرَ. وحيداً، خاملاً، أتسكّع في البيت قليلاً، ثمّ أذهب لأجلس تحت التّينة قرب البئر.

وهناك أصابتني، دونما تخطيطٍ مسبقٍ، الغوايةُ ذات صباحٍ جميلٍ من أصباح شهر أبريل. عرفَت كيف تهمس إليّ. كانت غوايةً ربيعيةً، غوايةً من أعذب ما يكون بالنّسبة إلى من كان سريع التعلّق بالسّماء الصّافية، والأوراق الرّقيقة، والزّهور التي لتوّها تفتّحت.

t.me/qurssan

لذلك استسلمتُ.

انطلقت عبرَ الحقول. آه! كان قلبي يخفق! الرّبيع مشرقٌ في كامل بهائه. وحين دفعت البابَ المفضي إلى المرج، انقض على وجهي خليطٌ من مائةِ عطرٍ، أريج الأعشاب والأشجار والألحية النديّة. ركضت حتّى الأجمة من دون أن أنظرَ خلفي. كانت ثمّة نحلاتٌ تتراقص. كانت تطنُّ بأجنحتها في الجوّ حيث تتماوج حبوبُ اللّقاح. وأبعدَ كانَ ثمّة بستانُ لوزٍ ليسَ إلا كتلةً من أزهارٍ تهدلُ عليها أول طيور ورشانِ السّنة الجديدة. كنتُ مفتوناً.

الطّرق الصّغيرة تجذبني بمكرٍ. تهمسُ إليّ: «تعالَ، ما المشكلة في أن تتقدّمَ خطواتٍ بعدُ؟ المنعطف الأوّلُ ليسَ ببعيدٍ. سوف تتوقّف قبالةَ أشجار الزّعرور». تلك النّداءاتُ كانت تُفقدني صوابي. ما إن أنطلق في هذه الدّروب التي تمضي متعرّجةً بين سيّاجين من النّبات تملؤهما العصافير والتّوت الأزرق، هل سأستطيع التوقّف؟

كلّما تقدّمت إلا وتملّكتني سطوةُ الطّريق. وبقدر ما كنت أتوغّلُ، كانت الطريق تزدادُ توحّشاً.

المزارع تختفي، والأرض تصيرُ أسْمَكَ، وهنا وهناك تنمو أعشابٌ رماديةٌ طويلةٌ أو صفصافاتٌ صغيرة. والهواء يهبُّ، في نفخاتٍ، معبّأً برائحة الطّين البليل.

t.me/qurssan

فجأةً انتصبَ أمامي متراسٌ. كان حاجزاً من ترابٍ تكلّله أشجارُ الحور. تسلّقتُه، فاكتشفتُ النّهرَ.

كان عريضاً ويجري باتّجاه الغرب. مياهُه القويّة التي ضخّم منسوبَها ذوبانُ الجليد، كانت تنزلُ ساحبةً معها أشجاراً. كانت ثقيلةً ورماديةً ومن حين إلى آخر، بلا سببٍ ظاهرٍ، تتشكّلُ دوّاماتٌ فتغمُر حُطاماً كان قد اقتُلعَ عند موضعٍ ما باتّجاه المنبع. وحين كان يعوقُ جريانَ المياهِ عائقٌ، كانت تهدر. على مساحة خمسمائة مترٍ عرضاً، كانت كتلةٌ هائلةٌ، تتقدّمُ دفعةً واحدةً صوب الضفّة. وفي الوسط، تيارٌ أشرَسُ ينسابُ، كاشفاً عن نتوءٍ داكنٍ يجزُّ طميَ المياه. بدا لي النّهرُ مرعباً لدرجة أنّني ارتجفتُ.

وناحية المصبّ، ترتفعُ جزيرةٌ مقسّمةً اللّجةَ. ضفافٌ شديدةُ الانحدار مغطّاةٌ بصفصافٍ كثيفٍ تجعل الاقتراب منها صعباً. كانت جزيرةً رحبةً تكثر فيها أشجارُ البتولا والحور. وعند حافتها ترسو الأشجار التي يجرفها النّهر.

وحين كنت أعيد البصرَ صوبَ الساحل، كنت أنتبه إلى أنّه، مباشرةً عند قدميَّ، أسفل المتراس، ثمّة جَوْنٌ يكنفُ شاطئَ رملٍ دقيقٍ. هناك كانت المياه تنحسرُ. كانت تلك نقطة ميّتة. نزلت إليها. نباتات تمرحنّة، وخوصٌ طوالٌ، وشجيراتٌ نغت خضراء مزرقّة، تشكّلُ جميعاً قبّةً تجلّلُ هذا الملجأ.

وفي الغسق تطنُّ آلافُ الحشرات.

على الرّمل كانت تبدو آثارُ أقدامٍ حافية. كانت الآثار تتّجه من

t.me/qurssan

الماء صوبَ الجَون. كانت آثاراً عريضةً وراسخةً. هيئتُها هيئةُ آثارِ حيوانٍ. فزعت. كان المكانُ منعزلاً، وحشياً. وكان يتناهى هديرُ المياه. من تُراه يأوي إلى هذا الجون المخفيّ، هذا الشّاطئ السريّ؟

قبالتي، ظلّت الجزيرةُ صامتةً. ومع ذلك بدت لي هيئتُها متوعّدةً. كنتُ أحسّ نفسي وحيداً، هيّناً، مكشوفاً. لكن ما كان بوسعي أن أرحل. قوّةٌ غامضةٌ كانت تشدّني إلى هذه العزلة. بحثتُ عن دغلٍ أتخفّى فيه. ألم يكن يراقبني أحد؟ اندسست، متوارياً، تحت دغلٍ شائكٍ. كانت الأرض النّاعمة مغطّاةً برغوةٍ رقيقة وطريّة. هناك مكثتُ، متوارياً، أراقبُ الجزيرة.

في البداية لم أبصر شيئاً. كان ظلّ الأوراق يمتدّ فوقي؛ الحشرات تواصلُ رقصها؛ بين الفينة والأخرى يحلّق طائرٌ. الماء يجري، وتعرّجُ الشّاطئ يُبطئُ جريانه؛ الوقت يمرُّ، رتيباً، والهواء يصيرُ دافئاً. غفوتُ.

لا بدّ أنّي قد أطلتُ النّوم.

كيف استيقظت؟ لا أدري. حين فتحتُ عينيّ، مندهشاً ألفيتُ نفسي تحت الدّغل، كانت الشّمس قد جنحت، والظّهيرةُ توشك أن تنقضي. بدا لي أنّ لا شيءَ حولي تغيّر. ومع ذلك، ظللت ساكناً في جوف مخبئي، منتظراً حدوثَ أمرٍ ما.

فجأةً، وسط الجزيرة، بين أوراق الشجر، ارتفع خيط دخانٍ، صافياً، أزرقَ. الجزيرةُ عامرةٌ. أخذ قلبي يخفق. أمعنت النّظرَ إلى الضفّة المقابلة، لكن عبثاً. لم أبصر أحداً. وبعد برهةٍ خَفتَ الدّخانُ؛

t.me/qurssan

بدا أنّه ينسحبُ رويداً رويداً في حُزمِ الأشجار، وكأنّما امتصّته الأرضُ الخفيّة. ثمّ لم يبقَ منه شيء.

هبط الظّلامُ. خرجتُ من مكمني، وعدتُ إلى الشّاطئ.

أفزعني ما وقفتُ عليه. بجانب الآثار التي كنت قد انتبهت إليها على الرّمل، كانت ثمّة آثارٌ أخرى ما تزالُ جديدة. أثناء غفوتي إذن، مرّ أحدٌ بجانبِ ملجئي. هل رآني؟

بلغ الظلامُ الآن ما وراءَ القصب. جفل طائرٌ وسط نبات الأسل. أطلق صيحةً، فأجابَته، من الجزيرة، زفرةٌ موجعة.

فررتُ.

لم أبلغ المنزل إلا والظّلامُ قد أطبقَ على العالم.

أترك لكم تخيُّل الاستقبال الذي خصّتني به العمّة مارتين.

- متسكّع! وسخ! متشرّد!

تشمَّمَتني.

- إنّك تفوح برائحة الطّين.

- وما أجمَله من شَعْر!

كان شعري مليئاً بالأوراق والأشواك.

- اذهب، فمشّط شعرَك.

t.me/qurssan

ذهبتُ، خجلانَ، من غير أن أجيبها بكلمة. كنت أعرفُ العمّة مارتين حقّ المعرفة. تغضب، تصرخُ. لكنّ الأمرَ لا يذهبُ أبعدَ.

- ألا تخجلُ من نفسك؟

بالطّبع كنت خجلانَ من نفسي، ومن يخجل من نفسه يلزم الصّمتَ، وقد صمتُّ.

- ماذا إن أخبرتُ أباكَ بكلّ هذا، هِه! باسكاليه (باسكاليه كان اسمي)، هل ترى ما سيفعلُهُ أبوك!

كنتُ أرى، أرى رؤية اليقين. لكنّني أيضاً أرى العمّة مارتين، وكلّ ما فيها يقول: «أيّها الشقيُّ، إنّك محظوظٌ لأنّ العمّة مارتين ضعيفةٌ أمام هذا الوغد الصّغير المسمّى باسكاليه! ثمّ إنّ أباك، في طفولته، قد ارتكب حماقاتٍ كثيرةً..!».

تحتَ هيئتها المتوعّدة، كانت العمّة مارتين تلينُ.

- لا شكّ في أنّك جائع؟

كنتُ جائعاً، واعترفت بذلك.

غمغمت وهي تحضّرُ مقلاتَها: - اللعنة! منذ السّابعة صباحاً! يا شقيّ! أراهنُ أنّك تشعرُ بالدّوار.

كذبتُ عليها: - أجل يا عمّتي مارتين، هذه المرّة أشعرُ بالدّوار، لكنّه ليس دُواراً سريعاً.

- وأنا التي لا أملك ما أقدّمه لك، سوى حساءٍ. وحبّتَي طماطم. ونقانق.

t.me/qurssan

تناهى وقعُ أقدام. دلف بارغابو إلى المطبخ. لم يبدُ لي جسمه قطُّ بهذه الضخامة. كان يبدو بهيئةٍ وحشيّة. ولفرط ذهولها كادت العمة مارتين تسقطُ المقلاة. لكن هو لم ينتبه إلى الأمر.

قال: - أتيتكم بسمكاتِ روش. اطبخيها من فضلك. لا أظنّك سترفضين لي كأسَ نبيذ؟

ثمّ جلس إلى الطّاولة.

تناولت العمة مارتين سلّة الأسماك.

تناهى إلينا صوتها تَبْشُرُ السّمكات. وفي المقلاة سطع دخانُ الزّيت. دعَونا بارغابو إلى الطّعام. أتت العمّة مارتين بجرّة النّبيذ، وخبز أسمر، وخلّ الطّعام.

أخرج بارغابو من جيبه سكّيناً طويلةً. واحتزَّ من الخُبز قطعةً كبيرةً، ووضع فوقها سمكتين، ورسمَ بسكّينه صليباً فوق الطّعام. ثمّ أكل.

ظللنا ننظرُ إليه. لم يتفوّه بكلمة. من جسده كانت تفوح رائحةُ النّهر.

لم نفكّر في الأكل. تنبّه إلى الأمر. التقت نظرتي بنظرته، فهمس لي: - ينبغي أن تأكل يا بنيّ. لقد اصطدت هذه السّمكات لأجلك. إنّها آتيةٌ من النّهر. تعرفُ النّهرَ، أليس كذلك؟ النّهر بجزيرته وأجماته حيث يستطيع المرء أن يختبئ؟

شحبَ وجهي. انتبهت العمة مارتين للأمر. تناول بارغابو من

t.me/qurssan

الطّبق أجودَ السّمكات ووضعها في صحني. ثمّ بدقّةٍ عجيبةٍ فتحها، وسلّ عظامها، وصبّ على لحمها قطرتَين من زيت وخيطاً من خلّ.

قال: - كلّ شيءٍ جاهزٌ الآن، تستطيع أن تقضمها.

عبست العمّة مارتين قليلاً. وأكملنا الوجبة صامتين.

وحين رُفعت المائدة، أخذ بارغابو، وهو ما يزالُ غارقاً في صمته، يرسمُ على الطّاولة بحدّ سكّينه هيئاتٍ عجيبة. كانت أسماكاً غريبةً، بعضها تملؤه الأشواكُ، وبعضها الآخر مجرّدُ رؤوسٍ هائلةٍ فاغرةٍ أفواهها الشّرهة في الفراغ. وكان ثمّة أيضاً ثعابين عجيبةٌ وسلاحفُ ماء.

صمتنا أنا والعمّة مارتين، مأخوذَين بتلك الحيوانات الفريدة.

فجأةً غمغم بارغابو: - يبدو أنّها أماراتُ العاصفة.

ثمّ قام واقفاً وقال: - طاب مساؤكما! لا وقت لي أضيعه.

ثمّ اختفى.

أرعدت السّماءُ طيلة اللّيل. ظلّ الرّعدُ يدوّي بلا هوادة. غطّى بهديره الكئيب كلّ الرّيف.

وكان البرق ينفتح وينغلقُ كأنّه مقصٌّ من نارٍ. وضربَت الصّاعقةُ صنَوبَرَةً فانكسَرت وتهاوت. كان المنزل يهتزّ. والقبو وأغوارُهُ يردُّ

t.me/qurssan

صدى الهزيم. وأنا مدفوناً في أغطيتي، أفكّر في النّهر. لا بدَّ أنه يلمع مهيباً في ضوء أشعّةِ البرقِ الزّرقاء.

أتت الأمطارُ في الرّيح، مائلةً، وجلدت المنزل الذي أخذ يئنُّ، من أعلاه إلى أسفله، تحتَ وقع سياطِ الوابلِ. تواصلت العاصفةُ حتّى الصّباح. ثمّ لمّا حلّ الصّباحُ ابتعدت مزمجرةً. اخترقت الشّمسُ غمامةً، وبوهجٍ ضوئيّ عظيمٍ أضاءت الحقول الممتدّة.

لزِمت ثلاثةُ أيّامٍ من الحرارة حتّى جفَّت الأرضُ.

وطيلة تلك الأيام الثلاثة، لم أتحرّك من المنزل.

عادت العمّة مارتين إلى خبّها. استحوذ عليها الشّغفُ، فنسيت أمرَ مغامرتي.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

غواية

t.me/qurssan

t.me/qurssan

عدتُ صباحَ ثلاثاءٍ. بالكاد كان النّهار قد أطلّ برأسه. والعمة مارتين ما تزال نائمة في غرفتها. فقد ظلّت تحبُّ حتّى منتصف اللّيل. استغللتُ نومَها، فملأتُ كيساً صغيراً بالمؤن من الطّعام: تين وجوز وقطع خبز. وما هي إلا ساعةٌ حتى كنت عندَ ضفّة النّهر.

أيّ روعة! راقت اللّجةُ وفي مياهها الشّفافة الرّاكضةِ صوبَ أفقٍ من التلال، تنعكس زُرقةُ سماءٍ مشرقةٍ، صافية، حيثُ الرّيح تدفعُ ضاحكةً غيمتَين صغيرتين. ما عاد التيّار المركزيّ الرّهيب، الموصوم بالسّواد، يلطّخ هذه المرآةَ الصّقيلة. النّهار يشرق، والنهر يضحك بين ضفّتيه الزّاهيتين بالورود. طائرُ رفرافٍ يحلّقُ محيطَ الجزيرة، ونسيمُ الصّباح يتحرّك بين شجيرات الورد.

صعدتُ الضفّةَ صوب الكوخ. أربعة أعمدة تحمله فوقَ الماء، ومعبرٌ يفضي إليه.

داخل الكوخ، وفوق سريرٍ-أرجوحةٍ كانت ثمّة فرشة من

t.me/qurssan

طحالب جافّة. وشِباكُ صيدٍ قديمةٌ معلّقة في السّقف. وفي رُكنٍ بعض أواني الطبخ.

فكّرتُ: «هنا ينام بارغابو حين يصيد».

تحت الكوخ يُرى شاطئٌ صغير. وفوق الماء يطفو قارب صغير مربوط إلى أحد الأعمدة.

كان القارب عتيقاً وخشبه مسوّساً بعض الشّيء. عبر الألواح غير المحكمة كان الماء يتسلل خلسة. وانمحى الدّهان من بَدَنه[1]، منذ زمنٍ طويلٍ كشطته الشّمسُ والأمطارُ. لم تكن ثمّة مجاديف. حبلُ قنّبٍ منتوفٍ يمسك القاربَ، وكان الماءُ هادئاً حتّى أنّ الحبل المرتخي ينغمر في النّهر.

وعلى الفور أغراني ذاك الهدوء وتلك الدّعة. نزلت حتّى القارب، وبعد تردّدٍ وجيزٍ، وضعت قدمي فيه؛ مانَ تحت ثقلي. واضطربتُ لميَلانه أيّما اضطرابٍ. لكن ما لبث القاربُ أن استعاد توازنه. جلستُ بحذرٍ في الوسط، على مقعد القارب، ولم أتزحزح من مكاني. كان المركبُ، والماء، والضّفةُ، تبدو جميعاً ساكنةً، وعلى الرّغم من الانفعال الذي اعتصر قلبي، كنتُ سعيداً.

ذاك أنّي، مولياً الشاطئَ ظهري، لم أكن أرى أمامي إلا النّهر. كان يمضي منساباً. وأبعدَ، باتّجاه المصبّ، كانت الجزيرة، وقد علقت في شباك أشعّة الصّباح الأولى، قد بدأت تبرز وسط الضّبابِ

(1) بدن القاربِ، جُزؤه المحكمُ المقاومُ للغرق.

t.me/qurssan

الصّباحيّ. وأشجارُ الحور والدّردار والباتولا تشكّلُ مختلطةً كتلةً واحدةً، ما انفكّت تنفتقُ شافّةً عن حزمٍ كبيرةٍ من الأوراق التي أخذت تبرز في الضّوء. وعند الحافّة، صخرةٌ زرقاءُ تنبثق من تحت الماء، فتخرقُه بعنفٍ. ويردّ الماء على عنفِ الصّخرة متفجّراً غلياناً. على أنّ ضفّة الجزيرة كانت ورديّةً جداً، ويهبُّ عليها نسيمٌ عليلٌ، فيحمل إليّ أخلاطاً من عطور الأشجار والنّباتات والزهّور البريّة، فأُفتنُ. ومجدّداً، مثل المرّة السّابقة، صعد من خلال الأشجار، دخانٌ.

فكّرتُ: «إنّه بارغابو يشعلُ ناراً، لا بدّ أنّه قد صادَ اللّيلةَ» لمَ لستُ في الجزيرة؟ كنت أحلم بالتّواجد هناك.

ظلّ القاربُ ساكناً. ولا تيارَ يبلغُ هذا الملاذ الصّغير الذي أشعر فيه بالأمان. أستطيع أن أمكث فيه غارقاً في تأمّل المياه المنسابة الصامتة التي تفتنني حركتُها.

فقدتُ الإحساس بالزّمان والمكان وبنفسي، وما عدتُ أعرفُ ما الذي يتحرّك، أهو القاربُ أم النّهر. أكان النّهرُ يجري، أم أنّي أنا من يصعدُه، بأعجوبةٍ، من غير مجاديفَ؟ الله أعلمُ كيف انفكّ القاربُ من الشّاطئ، وغدت أعمدة الكوخ تبتعدُ. تبتعدُ. أكانت تبتعد؟

بغتةً استعدتُ وعيي. أين كنت؟ بين الكوخ والقارب سقط الحبلُ. جرّني تيّارٌ خفيٌّ فانطلقتُ بلا هدفٍ. حاولت أن أمسك في طريقي بغصنٍ؛ لكنّي أفلتّه. كنت أبتعد عن الضّفّة تدريجياً ودونما

t.me/qurssan

اهتزازٍ. جمّدني بردُ الهلعِ. ذاكَ أنّ الماء الذي كان في البداية هادئاً، صارَ ينضمُّ إلى التّيار تدريجياً، وبدأت أشهدُ لجةً هائلةً من ماء النّهر تجتاحني بسرعة.

كان النّهرُ بأكمله يتحرّكُ، وتيارُه العميقُ يسحبني صوب الصّخورِ القائمة عند طرفِ الجزيرة، حيثُ تنكسرُ اللّجج هادرةً.

كان عنفُ اللّجج يزداد حدّةً، فتسحبُ القاربَ القديمَ، أسرعَ فأسرع. تضعضع القاربُ. صعد الماءُ عبر الشّقوق. دوّاماتٌ هائلةٌ ضربتني من كلّ جانبٍ، وغدا القاربُ يلفّ حول نفسه. وحين كان يولي جناحَه الماءَ المندفعَ، كان يدورُ دوراناً خطيراً. كنتُ أقصد الصّخور رأساً. تتقدّمُ صوبي رهيبةً. أغمضتُ عينيّ. زمجر الماءُ، ثمّ تلقّفَت دوامةٌ القاربَ، فانحرفَ ببطءٍ- هزّ بدنَ القارب احتكاكٌ. توقّف ساكناً في قعرٍ من حصى رمليّة. فتحتُ عيني. لقد نجوتُ. رسوت على منحدرٍ ناعمٍ، عند طرف الجزيرة. وكانت الصّخور، التي تفاديتها، ما تزال تزبد مزمجرةً، لكن بعيداً.

بوثبةٍ صرتُ في البر.

وإذّاك بَكيت.

حين فرغت من البكاء ما طاب لي، حينئذٍ فقط أدركت وضعي. مائتا مترٍ من الماء العميق تفصلني عن شاطئي، شاطئ الأراضي المأهولة. هناك حيث أدخنةُ أفران منازل الأمّهاتِ الطّيبةُ. كيلومترينِ أبعدَ، تحتَ باقةٍ من أشجار الصنوبر والجمّيز يوجد منزلي الذي

t.me/qurssan

يفترض أنّه قد أطلق خيط دخانه في السّماء. كانت السّاعةُ التّاسعة. ولا بدّ أنّ العمّة مارتين قد أوقدت الحطب. ولا بدّ أنّها تبحثُ عنّي. تملّكني اليأسُ. كيف الخروج من الجزيرة؟ على مَن أنادي؟

جلستُ على جذر شجرةٍ، وحاولتُ أن أفكّر. وا أسفاً! أفكاري، لم تكن تتقدّم أبعد. كانت كلّها تهجس بي: «باسكاليه، لقد ضعتَ». لكن لا شيء من ذلك كان يهمّني. سؤال واحدٌ فقط ظلّ يعذّبني: «ماذا ستقول العمّة مارتين؟ لم تتجاوز السّاعةُ التّاسعةَ، ومع ذلك لا شكّ في أنّها قلقة. فكيف بقلقها حين ينتصف اللّيل؟ لأنّك حين ينتصف اللّيل ستكون ما تزالُ هنا يا صديقي باسكاليه. والماءُ الذي سيكتسي بالسّواد، سيجري كثيباً».

حزينةٌ، حزينةٌ يا أفكاري.

إذّاك حمل إليَّ النّسيمُ العذبُ رائحةً حرّيفاً، رائحةَ حطبٍ يحترق. أستعاد ذهني ذكرى البيت الذي كنتُ قد لاحظتُ، مرّتين من قبلُ، دخانهُ يصعد من بين الأشجار. قلت لنفسي: «ينبغي أن أرى هذا». ثمّ تسللت من تحت الغياض. بلغتُ حافةَ فُرْجةٍ.

وسط تلك الفُرجة كان يرتفع كوخ. واسعُ الاستدارة، مشيد من القصب. وأمام بابه عُلّقَ كيسٌ.

على الأرض التّرابية، وُضعت ثلاثةُ أحجارٍ، أثافي موقدٍ. وفي الموقد تتّقدُ نارٌ واهنةٌ. والدّخانُ المنبعثُ من الموقد يلحسُ قِدراً كبيرةً، أشبه ما تكون بمخلوقٍ عجيبٍ، أذناه صغيرتان وبطنهُ سمينةٌ.

t.me/qurssan

أمام الموقد قرفَصت بنتٌ صغيرةٌ تحرّك النّار بعصاً. قطٌّ أسودُ نائمٌ أمام الكوخ. دجاجاتٌ تنقب الأرضَ.

مَن هؤلاء النّاس الذين بلغ بهم البؤس أن سكنوا في هذا الكوخ المصنوع من الأغصان؟

كانت البنت الصّغيرة ترتدي أسمالاً. عيناها سوداوان، وبشرتُها مدبوغةٌ. ما أغربها من مخلوق!

في أذنيها حلقٌ نحاسٌ كبيرٌ. بين الفينة والأخرى تدندن بصوتٍ خفيض. حمارٌ يهيمُ في الفرجة لا مبالياً. وفيما وراء الكوخ، أسفل شجرةٍ، كانت تُلمحُ كتلةٌ بنيّةٌ هائلةٌ مبهمة. أخافتني تلك الكتلة. لم أستطع أن أحدّد ما هي، إذ كانت بعيدةً جداً عنّي؛ ظلّت الكتلة ساكنةً. هل هو حيوان؟

من القِدر تنبعث سحائبُ دخّانٍ. كانت الرّائحةُ شهيّةً. ومن الغابة أتى غرابٌ، وحطّ على كتف الصبيّةِ العاري. أخذت البنت تكلّمه. مذهولاً، رفعت رأسي لأرى. لكنّها ظلّت ساكنةً. هل أبصرتني؟

خرجت من الكوخ امرأةٌ عجوز. كانت هزيلةً وقاسيةً. تمسك ديكاً من رقبته، ذبحته على الموقد وهي تطلق صيحاتٍ وحشيةً.

قامت الكتلةُ البنيّةُ، نخَرت، ووقفت على قوائمَ أربعٍ، ثمّ تقدّم الدبُّ -إذ كانت الكتلة دبّاً- يتهادى. وإذ بلغ القِدْرَ، رفع خطمَه وأخذ يتشمّمُ الهواء باتّجاهي. هربتُ.

ركضتُ بلا توقّفٍ حتّى بلغتُ طرف الجزيرة، ثمّ التمستُ مخبئاً

t.me/qurssan

جيّداً. وما كدت أستقرُّ في مخبئي، حتّى اصطفق الماءُ. نظرتُ بفزعٍ. كان ثمّة قاربٌ يقصد الجزيرة من السّاحل. على متنه أربعة رجالٍ. أربعة أبالسةٍ، سودٌ يُبّس، أشدّ سواداً وبياساً من بارغابو. غجر! هذه المرّة قد ضعتُ! ضعتُ حقاً!...

رسوا، وسحبوا قاربهم، ليخفوه. ثمّ أخرجوا منه طفلاً. كان ولداً في عمري. وكان مقيّداً. رفعه أحد الرّجالِ وحمله على كتفيه. أبصرتُ وجهه. كان كالحاً كوجه خاطفيه، ويماثلهم شراسةً. لكن لا شيء فيه يشي بالفزع. كانت عيناه مغمضتين، وفمه مزموماً، كأنّما هو حجرٌ. حمله الرّجالُ الأربعة معهم، واختفوا تحت الأشجار. صرتُ وحيداً.

كان الوقتُ منتصف النّهار. شعرتُ بالجوع. لكنّي لم أجرؤ على الاقتراب من مؤونتي. أدنى حركةٍ منّي كانت تبدو لي فعلاً طائشاً وخطيراً، كلّ شيء يمكن أن يشي بي، حتّى غصنٌ ينكسرُ. سيكتشفون أمري، فيمسكون بي ويقيّدونني!

طيلة الظّهيرة لم أجرؤ على مغادرة مكمني، وهو نقبٌ صغيرٌ أُحدث في صخرة، وحجبته شُجيرتا توتٍ بريّ. كنت أنتظر أن تحدث معجزةٌ على الضّفة، أن يظهر شخصٌ ما، صيّادٌ، ربّما...

لكنّ أحداً لم يظهر. وحلّ المساءُ.

دهشتُ، إذ لم يسبق لي أن رأيتُه، أقلّه على هذه الشّاكلة التي أراه

t.me/qurssan

بها الآن، مظلماً أزرقَ تماماً، هابطاً من الشّرق، مع أشجار هائلةٍ من نجوم. ملأتني شساعتُه رهبةً.

بقدر ما كان ضياء النّهار يقلُّ، كانت السّماءُ، التي زادها الظلامُ عمقاً، تغور في هاوية تلوَ هاوية، وهيئاتٌ سماوية غامضةٌ تبرز. كانت تلك الهيئاتُ أجراماً مجهولةً. ولاحقاً سأعرف أسماءها: كوكبةُ الدّب الأكبر، ومنكب الجوزاء، وكوكبة الجبّار، ونجم الدّبران. أمّا وقد كنتُ لا أعرفُها، فقد اكتفيت بتأمّل لمعانها اللّيليّ. كانت تحترقُ بعيداً جداً في صمت. نيرانُها تنعكس مضطربةً في النّهر وقد صار الآن لامعاً أسود. إذ هبط اللّيل، فصار جريانُه أسرعَ، كانت مياهه تركض نحو الجزيرة بعنفٍ، لدرجة أنّني فزعتُ. عبثاً حاولت أن أتناساه، بأن أغمض عينيّ وأنا متكوّمٌ في ملجئي. خرير المياه الملتبس كان يصلني فتهتزّ له نفسي. كنت أشعر بنفسي صغيراً، هشاً، مختزلاً في كائنٍ ضئيل يرتجف في جُحر حيوانٍ.

بقدمي، كنت أستطيعُ أن ألمس الماء البارد المنسابَ سريعاً بكميّاتٍ وافرةٍ أسفل مخبئي. محيطٌ غدّارٌ وخطيرٌ، ما لبث أن أصابني بالقلق. ما عدت أستطيع التحمّل. زحفاً خارجَ مخبئي، ارتقيتُ منحدر السّاحل. كنت لأعطيَ أيّ شيءٍ، مقابل أن أسمع صوتاً بشرياً، أو أرى وجه إنسانٍ! لكن أيّ إنسانٍ أستطيع الاستغاثة به؟ سكّان الجزيرة يخطفون قَطعاً الأطفالَ. وأيّ قسوةٍ! مع أنّهم أناسٌ. لديهم كوخٌ. صحيحٌ أنّ كوخهم فقيرٌ، لكنّهم يستطيعون أن يناموا فيه كأيّ بشر. ويوقدون النّارَ. ونارهم تلك، كانت تضيءُ، على دفقاتٍ حمراءَ، أوراقَ الشّجر، غير بعيدٍ من مكمني. هناك كان

t.me/qurssan

موقدٌ؛ موقدٌ فعليّ، بجمره ورماده الحّار، وقِدرِه، وطعامه، وضيائه المطمئن.

كلّما أمعنت التّفكير في ذلك الموقد، إلا وتعاظمت الغواية، غوايةُ أن أتسلّل حتّى هناك، كي أبصر على الأقل، وسط هذا اللّيل الذي يشعرني بالوحدةِ، ناراً آدميةً. لذا تسلّلت خاطفاً من تحت الشّجيرات، من غير أن أكسر غُصيناً، فأفلحتُ، بمعجزةٍ، في أن أجد خلسةً، الفُرجةَ المعلومةَ. وهناك، تمدّدتُ تحت شجيرةٍ بهشية شائكةٍ، وأخذت أتبصّر.

كانت السّاحرة العجوز تجلس مقرفصةً أمام النّار. البنت تقلّبُ الجمر.

العجوز، بمغرفة في يدها، تحرّك على مهلٍ في المرجل طعاماً جهنّمياً لا أدري ما هو. الكلبُ قاعٍ على قائمتيه الخلفيّتين، يحدّقُ في العجوز ويتشمّم الأبخرة. كانت أذناه قائمتين. الدّب يهيم طليقاً في الفُرجة. وبما أنّ الرّيح كانت تهبّ من المخيم نحوي، فلم يكن بمقدور الحيوانات أن ترصد رائحتي.

ثلاثة رجالٍ، جالسين أرضاً، يأكلون غير بعيدٍ من النّار.

الرّابعُ كان واقفاً يحمل سوطاً.

والصبيُّ قد قيّدَ من قدميه وذراعيه إلى عارضةٍ.

للتّو فرغ الرّجل من جَلده. ترك السّوط علاماته في ظهره

t.me/qurssan

العاري حتّى الحزام. وحين تشتدُّ النّار، كانت تُرى على ظهره الملوّحِ ثلاثة خيوطٍ من دمٍ سوداء.

خاطب الرّجل الصبيَّ بكلامٍ عنيفٍ. لم أفهم كلامه. كان يتحدّث لغةً غريبة.

وبدلاً من أن يرتجف الولد، أجاب جلاّدَه بغضبٍ، ممّا كلّفه الجلدَ مرّةً أخرى.

هوى السّوطُ المفرقعُ على الجلد. صمت الولد.

كان ولداً حسنَ الوجه، متين البنية، أطول منّي قامةً وأشدّ منّي قوّةً، لا شكّ في أنّه صبيٌّ غجريّ.

تحت ضربات السّوط، زمّ شفتيه، لكن من دون أن يئنَّ.

ترك الرّجلُ الولدَ على مضض وذهبَ يأكل. ثمّ ابتعد ورفاقه عن النّار ودخلوا إلى الكوخ ليناموا. قامت العجوز، وانسحبت بدورها. لم يبق في الفُرجة إلا الكلب والدبّ والبُنيَّة. وظلّت عينا الطّفل المقيّد إلى العمود مغمضتين.

دنا منه الدبّ وتشمّمَه. ظلّ الطّفلُ ساكناً. رقد الدبُّ عند قدميه تقريباً، وكفّ عن الحركة. انطلق الكلب في الغابة يصيد..

استلقت البنت أمام النّار، وما لبثت أن نامت.

إذّاك رفع الطّفل رأسَه وفتح عينيه. بنظرةٍ متمهّلةٍ جالَ محيطَ الفُرْجة. اتّجهت نظرتُه إليّ، وحين التقت بعينيّ ارتجفتُ. مع أنّه لا يمكن أن يكون قد أبصرني. كنتُ متوارياً تحت الغصون والأوراق،

t.me/qurssan

لكنّه لامسني. خطرت ببالي فكرةٌ مجنونة: «ينبغي أن أزحف حتّى العمود، وأخلّص الولَد من وثاقه» خانتني الشّجاعة. بالكاد هجع المخيّمُ بكلّ من فيه: السّاحرةُ، والدبُّ، والرّجالُ الأربعة القساةُ، وهذه الفتاة التي قد يوقظها أدنى ضجيج.

كيف لي أن أتجاهله؟ خرجت من دغلي وتقدّمت خطوةً صوبَ الفرجة.

إذّاك أبصرني الولد. كان اللهب بالكاد يضيئني. رأني لكنّه لم يجفل لرؤيتي. عيناه كانتا تبرقان، وأسنانُه الشّبيهة بأسنان ذئب، تلمعُ بين شفتيه المتقلّصتين، وكان ينظر إليّ أتقدّمُ صوبَه، كأنّني شبحٌ، من غير أن يبدي أدنى انفعالٍ.

ولمّا بلغتُ العمود، أمسكت الوثاق كي أفكّه. لكنّ عُقدَه كانت قاسيةً، مشدودةً، لا تُحلُّ.

همس لي الولد: - ثمّة سكّينٌ قرب الموقد. اسمي غاتزو.

لكن قرب الموقد كانت تنام البنيّة.

أجبتُه وقد بدأت أرتعد: - سوف تستفيق.

همس الأسير: - آه! أنت خائفٌ؟

ثمّ خفض رأسَه. هزّني ألمه. تركته واتّجهت صوب النّار. مشيت الهوينا، كأنّني طيفٌ.

كانت السّكين ملقاةً على الأرض، لكن، لسوء الحظّ، كانت البنت قد نامت شادّةً عليها.

t.me/qurssan

أخذت يدها، وفرّقت أصابعها برفقٍ، واستللتُ منها السّكين.

واربت البنيّة عينيها ونظرت فيّ.

قالت: - أوه! إنّني أحلم!

رفعت يدها إلى وجهها، وأولتني ظهرها فزعةً من رؤياها. عاودها النّومُ.

عدتُ إلى العمود.

ولمّا فرغت من قَطع الحبال التي كانت تقيّد ذراعيّ الولد، صاح طائرٌ ليليٌّ، فاستيقظ الدبُّ. تفاجأ إذ رآني، فانتصب على قائمتيه، وأخذ يزمجر وهو يمدّ صوبي خطمه الهائل.

قال الفتى: - لا تخشَ شيئاً، أعرفُ كيف أتحدّث إليه.

قال «أغالاو، أغالاو، ريكشاه أرازادولس».

كان ينطق تلك الكلمات بحروفٍ حلْقية عذبة. هدأ الدبُّ. تكوّر على نفسه، تنهّد مستسلماً، وعاد إلى النّوم.

قطعتُ آخر الحبال.

ابتعدنا عن المخيّم.

لم يكن ثمّة قمرٌ. كان الظّلامُ حالكاً لدرجة أنّني، لولا رفيقي، لتهتُ عشرين مرّةً. لكن هو، كان يتّجه في العتمة بعينَي هرٍّ لامعتين، وكان يمسك بيدي.

سألتُه:- إلى أين تأخُذنا؟

t.me/qurssan

أجابني هامساً: - إلى القارب.

ثمّ ما لبثنا أن بلغنا القارب.

قال: - ها خلاصُنا.

لم أُخفِ خوفي:

- سوف نغرق لا محالةَ، إنّ التيارَ قويٌّ جداً.

أجابني بحدّة: - إن بقينا هنا، فسوف يقتلوننا. لا تخشَ شيئاً. أنا خبيرٌ بالماء.

سحبنا بمشقّة القارب من وسط الدّغل حيث كان قد خبّأهُ الغجر.

ركبتُ. نزل غاتزو إلى الماء، ودفع القارب. أُعجبتُ بقوّته. وما إن جرف التيارُ القاربَ، حتّى قفز إليه.

قال لي: - اجلس في مقدّمة المركب، سوف أقودُه أنا.

وضع مجدافاً عند ذيل القارب وبدأ في القيادة. بتجديف هاديءٍ ابتعدنا عن الجزيرة. بدت لي حينئذ هائلةً مظلمةً، بأشجارها الضّخمة، وسط مياهها الغزيرة المصطخبة.

سرنا بمحاذاتها بعض الوقت. ثمّ ما لبثنا أن سرنا منجرفين مع التّيار متّجهين إلى عرض النّهر.

وشيئاً فشيئاً تبدّدت الْجزيرةُ وسط الظّلمات.

سألته باستحياء: - إلى أين نحن ذاهبان؟

t.me/qurssan

لم يجبني غاتزو. وبالكاد كنت أتبيّنُه. لكن من أنفاسه وشهقاته خمّنتُ الجهد الذي يبذله في التّجديف. ذاك أنّ النّهر كان قوياً جداً، ولا يمكن السير فيه بغير مشقّةٍ.

t.me/qurssan

المياه النّاعسة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

سار بنا القارب قسماً كبيرا من اللّيل. بقيت ساهراً. في البداية كان غاتزو يقود القاربَ عرضَ النّهرِ. وكان يبدو خبيراً به. ولاحقاً أبصرتُ أشجار الضّفة تدنو منّا. كانت تتقدّمُ نحونا متشابكةً مُبَلبِلَةً، فتباطأت سرعتُنا. وسلكنا إذّاك قناةً بين جدارين من نباتات سوداءَ. وما لبثت القناة أن ضاقت حتّى صرنا في مرورنا نحتكُّ بالأوراق البليلة. ثمّ اتّسعت القناة، وعلى سطحٍ مائيّ، بدا ليَ شاسعاً في ضوء القمر الباهت، انتهى المطاف بالقاربِ، بعدما ظلّ يتباطأ أكثر فأكثر، إلى أن سكنَ.

قيّدناهُ. وسألني غاتزو:

- ما اسمك؟

- باسكاليه.

- حسناً يا باسكاليه، أنت في مأمنٍ. افعل مثلما سأفعل أنا، نَم! تُصبح على خير.

t.me/qurssan

ثمّ استلقى في القارب.

فعلت مثله. ومع أنّ خشب القارب كان قاسياً إلا أنّي سرعانَ ما نمتُ، لفرط ما كنت متعباً. وكان نومي هانئاً تلك اللّيلة.

على أنّ كلّ ذلك قد جرى منذ زمنٍ بعيدٍ، وأنا الآنَ شيخٌ مسنٌّ، لكنّني، ما طالت بي الحياةُ، لن أنسَى أبداً أيّامَ سنّي يفاعتي، تلك التي عشتها على المياه. إنّ تلك الأيّام الجميلة حاضرة في كامل طراوتها. وما رأيته يومئذٍ، ما زلت أراه إلى اليوم، وكلّما خطر ببالي، أعادني ذاكَ الطّفلَ الذي أسعدَه، لحظة استيقاظه، بهاءُ عالم المياه الذي استكشفه.

حين فتحتُ عينيَّ كان الفجر يبزغ. رأيتُ بدايةَ السّماءَ. لم أرَ غير السّماء. كانت خليطاً من الرّماديّ والبنفسجيّ؛ ووحيداً في خيطٍ رفيعٍ كان يظهر، عالياً جداً، اللّونُ الورديُّ. وفي موضعٍ أعلى، كانت الرّيحُ تنسج خيوطاً أخرى خلَل نُسالةٍ من بخارٍ رقيق؛ وشطر الشّروقِ، يرتفع بطيئاً من النّهر بخارٌ ذهبيٌّ باهت. صاح طائرٌ، لعلّهُ من فصيلة الهازجة. وأيقظت صيحته الحادّة الغاضبة نقيقَ ضفدعٍ مكتوماً. ثمّ رجّ خُوصَ نباتِ البوصِ رفيفُ أجنحةٍ مبلولة، وارتفعت من كلّ مكانٍ حولَ قاربنا مختلطةً همهماتُ الحيوانات المائية التي لم تكن بعدُ مرئيةً؛ تعالت الأصواتُ جميعاً، بين أنين، وحركات مختلسة، وماء يندفع نحو الشّاطئ، وقطراتٍ تَنقُط، وهنا جرذٌ فزِعاً

t.me/qurssan

بغطسُ، وهناك طائرٌ سريعٌ يرشّ الماءَ، وارتطام حصاةٍ، وانسلال بطّة بريّةٍ عبر نبات الأسل، وصياح أجشّ يطلقه بغتةً طائرُ هازجةِ الغاب، وصفيرُ طائر أبي صفّير، وتحت صفصافةٍ على الشّاطئِ يمامةٌ قد شرعت في الهديل. وأنا أنصتُ. وبين الفينة والأخرى يمرُّ نسيمُ الصّبح على هذا العالم غير الواقعيّ، على هذه الأمكنة الفريدة الأصواتِ، فتستيقظُ نباتات الماءِ من صمتها، تثنيها هبّةُ النّسيمِ، فتُخشخش بعذوبةٍ.

القاربُ ساكنٌ. كطوف فلّين يبدو شديد الخفّةِ، حتّى لكأنّه بالكاد يثبُت في الماء. وفي قعر المركب ينام رفيقي. مستلقياً على ظهره. رأسُه منقلبٌ إلى الخلف. نائم. النّوم يسكّنُ وجهَه. وجهٌ أسمرُ مفتول العضلِ، بارز الصّدغين. الأنفُ قصيرٌ ينفخ فيه منخاران صغيران. الشّفتان تبدوان كأنّما تشدّان على النّوم بعنفٍ. وجفنان سوداوان كبيران يغطّيان بثقلهما العينين المغمضتين. كذلك كان قناعُ النّوم يغطّي تمام التّغطية هذا الرّوح المتوحّش الصّغير. بين الرّوح وبين لحمِ الوجه لا يَفصل شيء.

لكنّ الحياة كانت تصعدُ فيه صاخبةً.

وحين جاوزَت الشّمسُ نبات البوص، وبلغت الوجه، انفتحت عيناه بغتةً.

. لمحني غاتزو وابتسم لي. على الوجه الجادّ، انفرجت أسارير الملامح القاسية فجأةً، فتشكّلت الابتسامةُ الشّديدة العذوبة التي رجّت كياني.

t.me/qurssan

وشوش غاتزو: باسكاليه.

ابتسمت له بدوري. لقد صرنا أصدقاء.

وإذّاك بدأ عهد المياه النّاعسة. قضينا عشرة أيّامٍ مختبَئين في شُعبةٍ ميّتةٍ من النّهر.

قال غاتزو مؤكّداً: -«هنا سننعم بالأمان لبعض الوقت؛ ولاحقاً، سنرى ما نفعل».

كانت الشّعبة الميّتة تتوغّل في الضّفة اليسرى من النّهر (أي الضّفة المقابلة للضّفة حيث مسقط رأسي)، وتمضي عميقاً في الأراضي الخفيضة. وكان يفصلنا عن ضفّتهم غطاءٌ متشابكٌ من النّباتات المائية. كنّا في مأمنٍ.

جدارٌ سميك من شجيرات النّغت يمتدّ طولَ الضّفة. وأقرب إلينا كانت نباتات الرّباطية والجولق، وحزمٌ من القصب كجدران سميكةٍ غائصة في الماء. قصب من كلّ نوعٍ: قصب المستنقعات، القصب المختلط، قصب الغاب العملاق، القصب العطريّ. كان القصب يرتفع من الطّمي البكر، قاسياً معمّراً، مشكّلاً، هنا وهناك، وسط المياه الزرقاء الكامدة، جُزراً منيعةً.

وكانت الشُّعبة تمضي متفرّعةً إلى قنواتٍ لا عدّ لها. بعضها يخترق الأرخبيل النّباتيّ، ثمّ ما يلبث تقريباً أن يختفي تحت ظُلّةٍ من خُضرة. وغيرها يمضي غائصاً تحت أشجار الصّفصاف. كان كلّ شيءٍ غامضاً. المياهُ وَسْنانَة.

t.me/qurssan

على أنّه بين الفينة والأخرى يسحب تيارٌ خفيٌّ زهرةً، زهرة سهميّة أو زهرة نفل.

كنت مفتوناً بتلك المشاهد.

أمّا غاتزو، فكان يبدو غير مكترث. كان شحيح الكلام. وكانت أساليبه الفظّة تدهشني في البداية، ثمّ ما لبثتُ أن اعتدتها. لم يذكر قطّ تخليصه، وهربَنا. كانت صداقته صداقةً صموتاً. وكان التّفاهم بيننا ممكناً، لأنّني أنا أيضاً كنت أحبّ الصّمتَ. لكنّا لم نكن نحبّه للأسباب نفسها. فهو كان يصمت ليفكّر في أفعال مفيدة. أفكاره كلّها تتجسّد في أفعال تسدُّ حاجاتٍ بعينها: الصّيد، إيجاد مرسى جيّد، إقامة سِتْر دونَ الشّمس، اتّخاذ مأوى، طهي طعامٍ.

لم يكن يتكلّم البتّة لأجل الكلام فقط. ولم يكن يقوم بأيّ فعلٍ سدى. لكلّ كلمة ينطقها مقصدٌ، ولكلّ فعلٍ يندّ عنه غايةٌ. كان صاحب روحٍ مقتصدٍ. لكنّ روحه كانَ حاضراً. كنت أشعر به بقربي، منكفئاً داخل هذا الجسد الأسمر، وقطعاً كثيباً بعض الشّيء. روحٌ كنفته حياةٌ قاسيةٌ، فصار يعيش في مزاجٍ أسود. روحٌ يبدو حقوداً ومخلصاً في آنٍ.

وكانت طبيعتي تتباين بالجملة مع طبيعته، ما خلا ميلَنا المشترك للصّمت. غير أنّني إن كنت أصمتُ، فإنّما كنت أصمتُ لمتعة الصّمت نفسه. وصمتي لم يكن خُلواً من خواطرَ، لكنّها كانت جميعاً خواطر حاملة، تطفو، وتتيه، وتتسكّع، أو تغرق في تلك

t.me/qurssan

الحالِ التي نكون فيها نصف نوّام، الحالِ المناسبة للأحلام العبثية. فلا أكون إذّاك مستغرقاً في التأمّل، وإنّما ملاحقاً على غير هدىً انعكاس الأشكال المبهمة التي تعمُرني، وإذا ما لزمت الصّمتَ، فإنّما لأنّ الصّمت يسهّل على تلك الظلال الهاربة الولوج إلى روحٍ يُفتنُ بظهورها.

قال غاتزو مستثاراً: - إنّك تنام واقفاً.

وكان هو قد فصل بين النّوم واليقظة فصلاً صارماً.

قال: - حين أنام، أقوم بما يلزم. أغمض عينيَّ ولا أفكّر في شيء. يريحني ذلك. أمّا أنت، فعندما تنام، فإنّك تتقلّبُ، وتتحدّث وتفسدُ نُعاسك.

لم أحر جواباً؛ فقد كان مُحقاً. لكنّ كلامه آلمني.

أوّل يومٍ قضيناه في الشّعبة الميّتة كان جميلاً. لم أعش قطُّ يوماً مثله. أجمل يومٍ في حياتي. بدأنا، أوّل ما بدأنا، باستكشافِ القارب. وكان يحوي نفائسَ. صندوقين ممتلئين. صندوقاً في المقدّمة، يحوي معدّات صيدٍ: خيوطاً من أشعار الخيل، فلّينات، شصوصاً، خيوطاً، فخاخاً، شِباكاً؛ وصندوقاً ثانياً في مؤخّر القارب. متخماً بالمُؤن، وقد وُضعت في علب حديد، في منأى عن الرّطوبة. قال لي غاتزو إنّهم كثيراً ما كانوا يوغلون مبتعدين عن الجزيرة، فلا يستطيعون التزوّد، لذلك وُضعت المؤن بالقارب على ذلك النّحو.

t.me/qurssan

وددتُ لو أعرف أكثرَ، لكنّ غاتزو أوقف بَوحه عند هذا الحدّ.

غمرنا اكتشافُ المؤن فرحاً. كان ثمّةَ سُكّر، وقهوة، وبرميل طحين، وخضر مجفّفة، وتوابل، وقنينة زيت، وما لستُ أذكره. كان لدينا بالمحصّلة ما يكفي لنعيش أسبوعاً.

وكان القارب مزوّداً بأربعة مجاديفَ. بدنُه في حالٍ جيّدة، يبدو مصمتاً لا يخترقه ماءٌ. والصّباغة متماسكة.

وقد رُصّعَ ظهرُ صندوق المقدمّة، بِوَردة بوصلةٍ[1] من نحاسٍ. فُتِنّا بها. إذ كانت بها اثنتان وثلاثون سناً، وتحمل أسماء ست عشرةَ ريحاً، كلّ اسمٍ أجمل من الآخر: اللابي، الجريجالي، الترامونتان.

قال غاتزو: ينبغي أن نصقلها، إنّها تميمة حظّنا.

انصرفنا عن كلّ شيءٍ إلى صقلها. صارت تبرق. برز حول الوردة اسمُ القارب، في حروف كبيرة من ذهب: «المارويت»[2].

قال غاتزو مؤكّداً: لقد سرقوها. أعرف من أين. لكنّه مكانٌ بعيد.

أشار باتّجاه منبع النّهر.

وحيثُ أشارَ، بالكاد كانت تُلمح لامعةً تلالٌ خفيضة.

سألته: - هناك؟

(1) تسمّى كذلك وردة الرّيح، وهي رسمةٌ تحدّدُ اتّجاهات الملاحة.

(2) من فصيل طيور المرعة، وهي طيورٌ مائية من رتبة الكراكيات.

t.me/qurssan

أجابني: - نعم هناك. إنّه بلد جميل.

أيّ بلد؟ ومن أين أتى غاتزو إلى الجزيرة؟ ومن يكون؟

أسئلةٌ كثيرةٌ كانت تموج في ذهني، لكنّني لم أجرؤ على سؤاله، لم أكن أسأله أيّ سؤال. لأنّني أنا أيضاً كنت بالنّسبة إلى غاتزو لُغزاً. وجودي في الجزيرة، وظهوري المفاجئ، لا بدَّ أنّ ذلك ممّا يثير فضولَه.

ومع ذلك لم يكن يبدي أيّ فضولٍ تجاه هذه الخوارق التي كانت تثير ذهولي أنا نفسي في المقام الأوّل. إذ كنت أقول لنفسي، بين الفينة والأخرى، إنّني غارقٌ في حلمٍ لذيذ ومرعب.

كيف انتهى بي المطاف على هذا المركب، بعد مغامرات عديدة، رأساً لرأسٍ مع فتىً لا أعرف غير اسمه؟ هذا القارب المتخفيّ، الضائع وسط القصب، في شعبة ميّتة من النّهر؟ وأنّى لي أن ألفي نفسي في وضع مماثلٍ، من دون أن يُخالط لَذّاتي ندمٌ؟ فالحقُّ أنّي لم أشعر بأيّ ندم، حتّى حين كانت تخطر ببالي عمّتي المسكينة مارتين. لا بدَّ أنّ المسكينة تئنُّ، تبكي، تصرخ، حائرة لا تدري ما تفعل. كنت أراها، وأسمعها، وأشفق عليها قليلاً. والحقّ أنّه كان إشفاقاً عن غير اقتناع. لكن كلّ ذلك لا يمنع من أنّ تواجدي هنا، عائماً على هذه الألواح الخفيفة، مغموراً بشمس الصّباح ونسيمه، كان يملؤني سعادةً حيّةً، سعادة حقّاً.

كانت السعادة تغمر جلدي، تغمر بدني، تغمر دمي؛ وتغوص حتّى تبلغ روحي. وما كنتُ أعرف ما الرّوح. ففي سنّي تلك نكون

t.me/qurssan

ما نزال جاهلين بتلك الأمور. لكنّني كنت أشعر حقاً أنّ لذّة الحياة التي تغمرني أعظمُ من جسدي وأكبرُ، فكنت أقول لنفسي: «إنّ ملاك الرّب هو من يتحرّك فيكَ بهجةً، يا باسكاليه. أحسن معاملته إذن».

وقد أحسنتُ معاملته، وإن معاملةً عامّةً. إذ أنفقنا اليوم الأوّل في كدٍّ شديدٍ.

بدأنا بتغيير المرسى.

لقد أشار غاتزو بملاحظةٍ وجيهة: «إن مرّ بنا أحدٌ هنا، ونحن وسط هذا الماء المكشوف، فسوف يلمحنا. هيّا نغيّر المكان».

وبضرباتٍ خفيفة من المجاديف، دنونا من القصب.

رسَونا وسط ثلاث جُزَيْرات كثيفة النّبت. وكانت إحداها، تنبثق من الماء قليلاً. كانت أرُضها، وهي وحلٌ يابسٌ، صلبةً بما يكفي. وفيها كانت تنبتُ أعشابٌ طويلة، وبعض الشّجيرات، وعند الحواف نباتاتٌ طاسيةٍ جميلةٌ.

قرّر غاتزو: - هنا سيكون مرسانا. ثمّة حطبٌ يابس، فلنحفر موقداً.

وحفرنا موقداً. عثر غاتزو على حصاتين عريضتين مستويّتين. صنعنا ركاماً من الحطب اليابس وسُوقِ النّباتِ.

t.me/qurssan

قال غاتزو آمراً: - والآن لنصِد غذاءنا.

أعدّ قصبتين. وكنتُ أنا مستجداً في حرفة الصّيد، فعلّمني.

جلس على حافة القارب مقرفصاً، وقال لي: - لاحظ كيف أفعل، والزَم الصّمتَ.

مضى خيطا القصبتين على غير هدى، وظلّت قطعة الفلّين ساكنة على سطح الماء الرّائق الكامد.

لا شي يتحرّك. ولا هبّة ريح على القصب. ولا تيار يخرق اللّجة. وحدها فراشةٌ هيّنة، لونُها ذهبيٌّ ورديٌّ، ترفرف، محاذية الماء الصافي الهادئ. وأحياناً كانت تلامسُه. هل كانت تشرب؟ وحول خلوتنا، من كلّ جانبٍ، يكتمُ الضّوءَ ظلُّ القصب والصّفصاف. فقط نورٌ خافتٌ كان يطفو على ذاك البساط السّائل الغامض. ربّما تحت هذه الانعكاسات القاتمة، لم تكن مأهولةً مملكةُ الماء الخفيّة. كنت أميل إلى الاعتقاد في ذلك؛ وإن كان يُخيّلُ إلينا، بين الفينة والأخرى، أنّ إصبعاً فضيّة تنزلق في العتمة تحت-الماء، وما تلبث أن تختفي فوراً. وإذّاك تصعد بضع فقاعاتٍ من طحلب.

أمسك غاتزو بأربع سمكات من فصيلة أسماك الهفّ، وسمكة من فصيلة اللّخ، وأمسكت أنا بسمكة من فصيلة الشبّوط.

مُنذ تلك اللّحظة صرنا نعيش حياة مثيرةً. كان الطّعامُ طوع أيدينا! وأيّ طعامٍ! ليس غذاءً تافهاً، اشتَرَته وحضّرَته وقدّمتَه إلينا

t.me/qurssan

يدٌ غير يدنا، وإنّما هو طعامُنا نحنُ، طعامنا الذي اصطدناه بأيدينا، وكان علينا أن ننظّفه ونتبّله، ونطهوه بنفسينا.

وإنّ القوى الكامنة في ذلك الطّعام تمنح من يأكله مَلَكاتٍ خارقة. إذ تُوَحّدُ بين حياته وبين الطّبيعة. لذلك انعقد على الفور بيننا وبين عناصر الطّبيعة اتّصالٌ عجيب. انكشف لنا الماءُ والتّراب والنّار والهواء.

الماء الذي صار لنا أرضاً طبيعيّة، إذ كنّا نسكن على الماء؛ ومنه كنّا نستمدّ العيش.

والتّراب الذي كان شبه خفيٍّ، لكنّه كان يشدّ الماء بيديه القويّتين. والهواء الذي منه تأتي الرّياحُ، والطّيور، والحشرات. الهواء الذي فيه تجول السّحبُ وئيدةً. الهواء الهادئُ والعاصف. الهواء الذي فيه ينتشر النّور والظّل. الهواء الذي فيه تتشكّل الرياح الطّوالع.

ثمّ النّار التي لولاها ما اتّخذ الطّعام طبعَه البشريّ. النّار التي تدفئُ وتبعث السّكينة. النّار التي هي أساسُ التّخييم. إذ بدون النّار تنقص المخيّمَ ركيزةٌ من ركائزه. يفقد معناه. يفقد جاذبيّته؛ لا يظلُّ مخيّماً بالمعنى الفعليّ للكلمة، أي بما ينطوي عليه المخيّم من طعامٍ ساخن، وأحاديثَ، وتسلية بين مرحلتين، وأحلامٍ، ونومٍ هانئٍ.

حتّى ذلك اليوم لم أكن أعرف النّار، النّار الحقّ، النّار في الهواء الطّلق. لم أشهد إلا نيراناً مستأنسةً، نيراناً أسيرةً في موقد، نيراناً مطيعة، نيراناً تولد من عود ثقاب هيّنٍ، ولا نسمح لها بأن تشتدّ ويشيطَ لهبُها كما تشاءُ. وإنّما نحدُّها، نميتُها، ونبعثُها من موتها،

t.me/qurssan

ولنقُل بالجُملة إنّنا نهينُها. إنّها نيرانٌ نافعةٌ وكفى. ولو أنّ البشر استطاعوا أن يستعيضوا عنها بما يضمن لهم أن يصطلوا ويطبخوا طعامهم، لما ظلَّ لها عندهم موضعٌ. لكن هنا، في مهبِّ الرّيح، وسط نبات القصب والصّفصاف، كانت نارُنا النّارَ الحقَّ، النّار العتيقة، نار المخيّمات البدائية.

وهذه النّيران لا توقدُ بسهولة.

التمسنا في القارب أحجاراً قدّاحة. لكنّنا لم نجد صوفاناً. عكف غاتزو على فتل ألياف البوص اليابس، وبعد طويلِ صبرٍ وأناةٍ حصّل شرارةً. جعلنا ننفخ فيها، وقلبانا يخفقان. كنّا نحتاج ناراً. فقد خلصنا إلى أنّنا من دون نارٍ يستحيل أن نعيش. ثمّ أخيراً نشبت النّار في الفتيل، فنقلناها إلى ركام من أعشاب يابسة. كانت الأعشاب تحت قبّةٍ من سوقِ النّبات، فأخذت تشتعل شيئاً فشيئاً. صنعنا جمراً. قمنا بتسخين الموقد والحصاتين. وحين صارت الحصاتان لاهبتين وضعنا عليهما الأسماك وقد حشوناها وغطّيناها بأغصان الشّمر. أزَّ اللّحمُ. وكانت تلك ألذَّ وجبةٍ تناولتها في حياتي. كانت تضوع بريح الجمر والشّمر والزّيت الطريّ. وشربنا ماءً. وغمسنا قطع البسكويت في قهوةٍ قويّة. ثمّ استلقينا على الظّهر ونمنا.

أمّا النّار، فحفظناها تحت قبّةٍ من رمادٍ محكمة الإغلاق. كانت حصينةً، في حفرةٍ، فظلّت تحيا خافتةً. لم تكن إلا بذرة نارٍ مدفونةً في صلصال، وما زالت متّقدةً حتّى المساء، فأطعمناها حطباً من جديد.

t.me/qurssan

بين الفينة والأخرى كانت تُصدر خيطَ دخانٍ لا يبين، وتنتشر رائحةُ الرّماد الدّافئ عبر القصب الذي يأوي مخيّمنا.

ومنذ اليوم الأوّل شغلَنا هاجسُ أخفاء دخانِ نارنا. ذاك أنّ البرّ المحيط كان يعجّ بالأخطار. لا شكّ في أنّ الغطاء النّباتيّ بجزيرتنا كان يحجبنا، لكنّ الدّخان كان ينفلت منه؛ وفي أيّ لحظةٍ قد يشي بوجودنا. كانت ضفاف النّهر تبدو غير مأهولة. لكن ما من مكانٍ غير مأهولٍ، إلا ويطرقه أحياناً صيّادُ سمكٍ أو ناصبُ فخاخٍ، أو متنزّه متسكّع. فقرّرنا استكشاف الشّاطئ.

في الشّعبة الميّتة، حيث التيّار ضعيفٌ والقعر عالٍ، تحرّكنا بواسطة عصاً. كانت تخومُ البرّ محميّةً جيّداً. ونبيت الماء ينمو فيها بغزارة مدهشة. سرنا ببطءٍ وحذر على مروج مزهرةٍ واسعة. هناك كانت ترتفع أزهار من فصائل لسان الحمل والحمّاض والحوذان وسوسن المستنقعات. بقيدوم مركبنا كنّا نزيحُ الطّحالب العدسية وزهور النّيلوفر. وأبعدَ كانت تغطّي مياهَ قناةٍ كامدةً زهورُ النارديين المستنقعيّ. كان البساط السّائل يرقد تحت كلّ تلك الأزهار البيضاء والوردية والصّفراء والبنفسجية؛ بعض الأزهار كان يرفع سوقَه منتصبةً، وبعضها كان يطفو على الماء ساكناً. وأحياناً كنّا نصادف نباتات عشربٍ زرقاء عالية، فنُفتن بها.

t.me/qurssan

لا بل إنّنا رأينا حتّى بعضاً من السّوسن الأصفر المسمّى سوسن المستنقعات، لكنّه لم يكن يزهر إلا شهر سبتمبر/ أيلول.

رسونا على قعرٍ حصويّ.

رقينا ضفّةَ النّهر، وجعلنا نستكشف الأرض المحيطة. كانت فارغة.

قال غاتزو: المكانُ خالٍ كالصّحراء.

- سنكون إذن في مأمنٍ.

- ربّما يا باسكاليه. لكن ينبغي أن نلزم الحذر. إن لم يكن غيرنا في الأرجاء، فلا بدّ أن نعرف ذلك عاجلاً.

- ومن غيرنا قد يكون؟

- لا أدري. أحدٌ ما. ثمّة دائماً من يكمن مترّبصاً.

كانت تنتصب بالمكان شجرة باتولا عظيمة. تسلّقناها. فانكشفت لنا الأرض.

ناحية منبع النّهرِ، وادٍ رحبٌ. الأشجارُ تعتم الضّفافَ الواطئة. وفي الأقصى جبلٌ، بالكاد يُلمحُ؛ بحيث يبدو أشبه شيءٍ بسحابة.

قال لي غاتزو: - لقد قطعنا اللّيلة سبعةَ فراسخ يا باسكاليه. ما عُدت ترى الجزيرة. وهذا لحسن حظّنا.

سألته: - هل سيلاحقوننا؟

- ربّما، لكنّهم سيحتاجون مركباً.

t.me/qurssan

- مركبي ظلّ راسياً هناك؛ لكنّ الماء يتسرّب منه.

- لن يبطئوا في إصلاحه. أعرفهم حقّ المعرفة. تكفيهم ثلاثة أيّام.

فكّر، ثمّ أضاف: - إلى حين ذلك سنكون تقريباً في مأمنٍ هنا. وبعد ذلك، سنتدبّر أمرنا.

على بعد ربع فرسخٍ باتّجاه المصبّ، كانت الشّعبةُ الميّتة تلتقي مجدّداً بالنّهر. والنّهر يمضي متقلّصاً، نازلاً صوب تلالٍ جميلة. وهناك يلتقي جروفاً صخرية، فتراهُ يمضي منعطفاً، برّاقاً، في الشّمس الغاربة. وعلى بساطِ الأراضي السّمراء، يلتمعُ في موضع أبعدَ، بساطٌ من ماءٍ شاسعٌ يتوهّجُ.

وكان المساء قد بدأ ينصب أعمدةً من بخارٍ دافئ. بعضها كان يبرق كبُراد الذّهب؛ وبعضها، مدخِناً في ظلّ التّلال، قد بدأ يزرقُّ.

عند قدمينا، بمحاذاة الشّعبة الميّتة، تمتدّ براحٌ[1]. لا ينبت فيها غير مجموعة من أشجارِ الأثلِ والرّباطية. وحولها في كلّ مكانٍ أرضٌ قاحلة يملؤها الحصى.

لا كوخ في الأرجاء، ولا أثر لحياةٍ. بالْكاد تَرى هنا أو هناك طائر جشْنة أو جاثماً حزيناً. جنوباً، ما تلبث البراحُ أن ترتفع صوبَ قُنّةِ تلٍّ عارٍ يحجب عنّا بقيّة البلد.

قال غاتزو: - لا بدّ أنّ ثمّة قرية.

---

(1) البراح: الأرض الواسعة، القليلةُ النّبت. أو القفرُ.

t.me/qurssan

- أين؟

- في مكانٍ ما خلف هذه القُنّة.

- وكيف عرفت؟

ابتسمَ.

- أُحِسّ بذلك. وهذا كلّ ما في الأمر. يوماً ما سنصعد على هذه القنّة، وسوف ترى بنفسك.

كنت معجباً بهذه الثقة لدى غاتزو. كان يعرف كلّ شيء.

من فوق الشّجرة كان يُرى شريطٌ من أعشاب معمّرة، يعبر من خلال حصى البراح، ثمّ يمضي نازلاً صوب الشّعبة الميّتة، وهنا وهناك، تنبثق فيه خُصلة من أسل.

قال لي غاتزو: - إنّه نبع! ينبغي أن نذهب لنرى.

وذهبنا.

لم نجد تحت العشب العالي إلا أرضاً رطبة. عدنا حتّى القارب لنأتي منه بمعول.

قال غاتزو: - لنحفِر هنا يا باسكاليه.

أحدثنا خرقاً تحت طبقةٍ منتفخةٍ من صلصال، فنزّت بالماء. واصلنا الحفر، وصنعنا حوضاً صغيراً. عبر شقٌّ في الصّلصال بَلَّ الماءُ طبقةَ رمل. بنينا جداراً وغرسنا فيه قصبة. ومكثنا منتظرين. ظلّت القصبة في البداية جافّة. كنّا نتحرّق نافذَي الصّبر، أكثر حتّى ممّا كنّا

t.me/qurssan

تحرّق لحظة عمدنا إلى إيقاد النّار. أخيراً، تشكّلت قطرةُ ماء، ثمّ تكوّرت؛ ظلّت متردّدة. ثمّ بغتةً سقطت. ثمّ أتى الدّور على قطرة اخرى، وعلى مهلٍ وُلد النّبعُ عند طرف القصبة الخضراء. كان بالكاد خيطاً من ماءٍ، لكنّه كان مصفّىً. وفي ساعةٍ جمعنا في محارةٍ مقدارَ كأسٍ من ماءٍ صافٍ. شربَ كلّ واحدٍ منّا جرعةً كبيرةً منبطحاً على بطنه.

كان الماء ما يزال يحتفظ بعذوبة الصّلصال النديّ وجذور الخبّان.

ملأتُ منه قنّينة حملتُها معي. ثمّ أعادنا القارب إلى الجزيرة، فبلغناها قبل حلول اللّيل.

أجّجنا النّارَ، ولكن بحذر؛ لأنّ الأشجار فوقنا، كانت لتعكس أوراقُها نورَ أدنى لهيبٍ يفلت من النّار.

نقّت الضّفادعُ معلنةً بنقيقها عن حلول اللّيل.

وكان اللّيل هادئاً.

كانت الأيام التّالية مشابهةً لليوم الأوّل، واللّيالي مشابهةً للّيلة الأولى.

سلامٌ عظيمٌ غمرنا، وغمر الأرجاء حولنا. وبعد دوخةِ السّاعات الأولى، نظّمنا حياتنا وفق حياة تلك المياه النّاعسة. رتّبنا أفعالنا كلّها على حركات الشّمس والرّيح، وعلى جوعنا وأوقات راحتنا. وامتلأ قلبُنا برضاً مذهل.

t.me/qurssan

كلّ ما كنّا نفعلُه، كان يدوم طويلاً، وكنّا نلفي ذاك الوقتَ قصيراً جداً. لأنّ على المياه النّاعسة تصير كلّ حركاتنا بطيئة، وببطءٍ يسيرُ قاربٌ بين جُزيرَةٍ وأخرى.

نحيا حياةً لا مكان فيها لنفاد الصّبر، ولدينا أيّامٌ طويلة. ونحبُّ أيّامنا تلك لطولها، ورتابتها الظّاهرة. إذ حين نعرف كيف نسبر غور الحياة، ندرك أنّ لا شيءَ أكثر حياةً من هذه الأماكن التي يبدو فيها الهواء والماء غارقين في النّوم.

بالطّبع تأتي أحيانٌ تهدأ فيها تلك الأماكن؛ لكن تحت هدوئها تظلُّ نابضةً بألف حياةٍ خفيّة. هذا ما أدركته إذّاك، وما استطعت أن أنساه مُذّاكَ.

وكان النّهار هو الفترة التي تسكنُ فيها فُرُش الهواء والماء أكثرَ ما تسكُن. ما إن يتلاشى نسيم الصّباح حتّى تهوي الأرض والماء في السّكينة.

حوالي السّاعة الحادية عشرة، يغطس غاتزو في الماء غطسةً كبيرة. يتوغّل في مسارٍ مائلٍ، حتّى يبلغ طحالب كالحة، وأنا أتابع بعينيّ، في خوفٍ ملتبس، جسدَه الأسمر وهو يتوغّل، مبتعداً عنّي، في تلك الأعماق ذات النّبت الخطير. كنت أتابع قدميه الطّويلتين وهما تنثنيان وتنبسطان وسط تلك اللّجة الخضراء. كان يتقدّم في الماء موغلاً بسَدادٍ كبيرٍ، حتّى ليبدو أنّه قد خُلق لحياة الماء كما لحياة البرّ. لم يكن في نظري حينئذٍ سوى حيوانٍ مخيفٍ من حيوانات الأعماق، وكنت أندهشُ إذ أراه ينبثق من الماء بعينين مغمضتين

t.me/qurssan

وملامح صارمة، تحت شعرٍ طويلٍ لامع، على بعد عشر خطوات من المركب البطيء حيث كنت أنتظره وجِلاً، إذ كنت عاجزاً عن اللّحاق به.

كان يقصد الضفّة ينشّف نفسَه عليها. في غمرة الشّمس، كان الدّخان ينبعث بهدوءٍ من بشرته البرونزية.

ولأنّني لم أكن أعرف السّباحة بالمرّة، فقد كنت أتبعه في سباحاته. وأحياناً كان يسلك سابحاً عبر القنوات، فيعتريني القلق من أن يختفي. كنت أتساءل: «ماذا لو لم يرجع، لو غرق، ماذا عسايَ أفعل؟».

كان القارب بالنّسبة إليّ وحدي، ثقيلاً جداً، ولم أكن أملك أدنى تجربة في هذه الحياة الحرّة البريّة التي يبدو هو معتاداً عليها.

كانت الظّهيرات حارّةً. فكنّا نغفو فيها. وما خلا دبيب حشرةٍ، أو قفزة شبّوط غير متوقّعة، لم يكن يجرح الصّمتَ شيء.

كنّا نقيل في الجزيرة، قيلولاتٍ عذبة، في ظلال قصب البوص أو شجيرات البتولا القزمة. وأحياناً كنّا نقود المركب تحت نفقٍ من خضرة، نجعله في منأى.

هناك كان ينمو الصّفصاف الأرجوانيّ، وتلك «الشّجرة الفضيّة» التي تُشبه شجرة زيتون.

كنّا نرسو عند جذر صفصافةٍ، ونظلّ هناك حتّى المساء خليّي البال، نتابعُ بمتعةٍ فوق الماءِ رفيفَ الفراشات أو ذباب «مايو أو

t.me/qurssan

اليعاسيب، أو حشرات الجورس التي لا تكلّ من تجديفها العصبيّ متلذّذة بتغضين الماء...

لم نكن نتحدّث إلاّ قليلاً. لم يكن غاتزو يخرق الصّمتَ إلا ليهمس لي:

- احترس يا باسكاليه، ثمّة حيوان.

فكنّا نلزم موضعنا، ساكنَين. تتحرّك أجمةٌ. وفي الغالب الأعمّ، باستثناء تلك الحركة في الأجمة، لا شيء يفصح عن وجود حيوان. يظلُّ متوارياً. لكن، أحياناً يبرز خطمٌ حادٌّ ينبش في القصب، ثمّ يظهر حيوانٌ، ضاربٌ إلى الحمرة، مخيف العينين. هو ابن عرس. وبعدما يتشمّم الحيوانُ الماء بحذرٍ، ينسحب في الدّغل.

مطمئنةً بصمتِنا، تتسلّل زغبةٌ على الضفّة، قلقةً، نابشة. ولا تطيل المكوث.

وقد يعبرُ القناةَ طائرُ غرّة أو بطّةُ ماءٍ، ثمّ ما يلبث أن يختفي بين الأسل، وبالكاد قد جعَّد الماءَ.

وأحياناً، تحت قبّة الأغصان، ينطلق مثلَ سهمٍ طائرُ الرّفراف، وببطنه الأزرق يلامسُ لُجَةَ الماء.

وما يلبث المساء أن يحلّ علينا في خلوتنا. وتتلوّن المياه كلّها بالورديّ والذهبيّ ولون الزّفير[1]، وتنعكس الأوراق الحمراء على

---

(1) حجر كريم أصفر.

t.me/qurssan

الصّفحة الصّقيلة للقناة الهادئة. ننطلق، بضرباتٍ بطيئة من القصبة، صوبَ بساط الماء الرّحب لنقضي المساء عليه.

هناك ألقينا المرساة بعمق ثلاثة أمتار. كنّا في مأمنٍ؛ إذ كنا خائفَين على الدّوام من البقاء على السّاحل.

وكنّا نتأمّل هبوط اللّيل جالسَين في مقدّم المركب نتناول قطعتي بسكوت وثلاث تيناتٍ جافّة.

وحين يحلّ اللّيل ويستقرّ، مع حمولته من النّجوم، آنذاك يصير غاتزو أكثر ثقةً، فيحدّثني قليلاً.

كان الظلامُ يقرّب بيننا.

يقول لي:

- ثمّة قطعاً قُضاعةٌ[1] في مكانٍ قريبٍ جداً.

- أين؟

- في أشجار النّغت. تأتي لتشرب. أسمعها كلّ ليلة.

- في وقتٍ متأخّر؟

- نعم. متأخّر جداً.

- وتكون أنت مستيقظاً؟

---

(1) ثعلب الماء.

t.me/qurssan

- هي التي توقظني. تضرب في الماء الذي تشرب منه. إنّ القضاعة حيوانٌ قويٌّ.

قلت له - أريد أن أراها.

- كيف تراها؟ لا قمر في السّماء.

إذ بالفعل لم يكن ثمّة قمرٌ في السّماء، بالكاد هلالٌ باهتٌ يحاذي الأفق، ثمّ ما يلبث أن يختفي.

لم تكن لياليا إلا مملكةً من نجوم. كانت النّجوم تتدلّى من كلّ ناحيةٍ، وهناك في الأعلى يشعُّ في الظّلامِ تقاطعُ أشعّتها الفضيّة، بينما في كلّ مكانٍ من حولنا تلمع آلافٌ من أنوارها الصّافية على المياه السّاكنة. كنّا نطفو بين سماءين هادئتين، خارج الزّمان والمكان.

ضفادعُ شجريّة تنقُّ في حشودٍ، وأحياناً يصير نقيقُها وحشياً.

ثمّ لاحقاً، تنطلق قبيلةٌ من العلاجيم إلى الغناء بصوتٍ أعذَبَ. كنت أحبّها. ما إن يهبط اللّيل حتّى تسري في كلّ مكانٍ حياةٌ غامضةٌ مبهمةٌ، فيتحرّك لها النّباتُ والمياه، والضّفاف، والأشجار. فبطّةٌ تقيق في القصب؛ وبومٌ تنعب في شجرة حورٍ أسود؛ وغُرير شرس ينبش دغلاً؛ وابن عرس ينزلق من غصنٍ إلى غصن، مرجّفاً رجفاً لا يكاد يُلحظُ ورقتين أو ثلاثاً؛ وفي البعيد يضبح[1] ثعلبٌ جوّابٌ.

يقول لي غاتزو: - إنّه حيوانٌ حزين. إنّه يفكّر.

(1) الضَّباح صوتُ الثعلب.

t.me/qurssan

لم أفهم البتّة.

- لذلك هو حزينٌ يا غاتزو؟

لكنّ غاتزو لم يجب. اكتفى بالقول: لقد فقد فردَوسَه. ذلك ما حُكي في بلادنا، والشّيوخ يعرفون القصّة حقّ المعرفة. لكن أنصِت...

وكُنت أُنصتُ. إذ إنّ طائراً رائعاً بدأ غناءه على الضّفة. كلّ ليلةٍ، في السّاعة نفسها، وعلى قمّة شجرة الدّردار عينها، يرتفع فوق المياه والبرّ نداؤه إلى التّزاوج. وقد صمتَ الثّعلب، وحبسنا نحن أنفاسَنا لفرط ما كان جميلاً غناءُ العندليب اللّيليُّ، في تلك الأيّام، أيّامِ نهاية شهر أبريل/ نيسان، موسمِ تزاوج الطّيور.

كنّا ننامُ على أصواتها. وكان نوم تلك الأيّام خفيفاً، خفيفاً جداً حتّى أنّنا كنّا نستيقظ مرّةً أو مرّتين قبل طلوع الفجر.

كثيراً ما كنّا نسمع، بينما نُستَلُّ من النّوم، صوت الطّائر الجميل ما يزال مستغرقاً في الغناء. لكن حينئذ يكون صوتُه أبطأَ وأحدَّ. ومن الطّريقة التي تتردّد بها شكواه، وحيدةً في قرارة اللّيل، فوق صمت المياه اللامرئية، كنّا نخمّن أنّ كلّ حيوانات الأرجاء قد هجعت. ونحن كذلك نعود إلى النّوم مجترّين طويلاً ذاك الغناء الحارق الوحيد.

ومع الفجر، لا نرى إلا طائراً كبيراً. كان يجثم، في صمتٍ عميقٍ، على مرتفع رقيقٍ من طينٍ، على بُعد خمسين متراً من القارب. منقارُه الحادُّ يتوعّدُ الماءَ. محرّكاً حوصلته فوق قدميه، إلى الأمام

t.me/qurssan

والخلف، كان يصيدُ بجديّة. كان بلشوناً رمادياً. وكنّا نتأمّله، لكن صامتَيْن، إذ إنّ أدنى صوتٍ قد يجفل هذه الطّيور.

بعد ذلك يظهر سربٌ من البطّ الغطّاس. كان يخرج دوماً من قناةٍ. كان أسطولاً صباحياً صغيراً يتحرّك بأريحيّة على بساط الماء الرّحب، حيث يطفو ضبابٌ رقيق.

ظهور بطّ الماء يعلنُ بداية الصّباح. وحين تبلغ أفرادُه عشرين متراً من الضّفة، تقلبُ الوجهة جميعاً، ويتّخذُ السّرب مسارَه، مولياً ظهره إلى الشّمس، سالكا أحدَ تلك الأنفاق التي تصنعها الأوراقُ، ثمّ ما يلبث أن يختفي هناك في ضوء الشّفق. وإذّاك تتحرّك كلّ الحيوانات. لقد حان وقت الاستيقاظ.

كذلك كنّا نعيش في النّسيان واللامبالاة.

أحياناً يكون كلّ شيءٍ هادئاً، لدرجة أنّ الهدوء يصير ثقيلاً علينا. فنصير إلى اختراع أخطار متخيّلة.

يقول غاتزو: - لا ندري أيّ النّاس يسكنون هذه الأرض. إذ لا بدّ أنّ ثمّة سكّاناً بهذه الأرض.

فأردّد أنا كلامه كالصدّى: - لا بدّ أنّ ثمّة سكّاناً بهذه الأرض... ربّما يكونون من المتوحّشين...

كانت تعتريني رجفةٌ في القفا. رجفةٌ لذيذة. تخيّل! متوحّشون!

t.me/qurssan

يهزّ غاتزو رأسَه بحذر.

- هذه الضّفة، لم توحِ لي قطُّ بخير.

أشار بيده إلى الضّفة اليسرى من الشّعبة الميّتة، الضفّة التي تغطّيها غابةٌ منيعة.

واصل الكلام: - تصوّر أن نكون في أرض قاطعي الرّؤوس، آكلي لحوم البشر السّودِ. غير مستبعدٍ. نظراً إلى كثافة الأشجار هنا وهناك.

إذّاك كان يعتريني رعب كاذب. رعبٌ ممتع. ذاك أنّنا حين نختلق خطراً غير معقول نخيفُ به أنفسنا، فإنّنا نعرف بالطّبع أنّنا لا نخشى شيئاً، ولكنّنا نخافُ مع ذلك. وإنّها متعة من أروع المتع.

وذات صباحٍ أعلن عليّ غاتزو: - باسكاليه، ينبغي أن نصنع لنفسينا أسلحةً!

ثمّ صنع قوساً أطول من جسمه. وصنعنا سهاماً من القصب. وما إن يتحرّك دغلٌ حتّى نرميَه بسهم.

حين يملك المرء سلاحاً، فإنّه يستعمله حتماً. نرمي لأجل الرّمي. وللأسف لا نحب أن نرمي بسلاحنا على لا شيء. نبحث على الفور عن هدف. ولا أعرف هدفاً أكثر إغراءً من طائرٍ. وقد كانت تحوم حولنا آلاف الطّيور، طيورٌ ألِفتنا وأمنت على نفسها بقربنا إذ رأتنا مسالَمين، واندمجت بحياتنا التي كانت تشابه حياتَها تقريباً: حياة هانئة طبيعية.

t.me/qurssan

كثيراً ما كان غاتزو يتابع بعينيه، والقوسُ في يده، بطّةً بريّةً على بعد خمس عشرة خطوةً من القارب، تسبح متبخترةً، وتغطس، وتلمّعُ ريشها، لا بل وتغفو حاشرةً منقارَها في جناحها، تاركةً جانب الحذر.

كان غاتزو، بأصابع عصبية، يهزُّ وتر قوسَه، ثمّ يوترُه بهدوء لا يكاد يلحظُ، فيصوّب على الطّائر. ثمّ يرفع السلاح بعنفٍ، ويطلق سهمه، كما اتّفق، صوب الضفّة.

مساءً، نقصد مكمننا، قرب النّبع.

يقول غاتزو: - لننتظر اللّيل يا باسكاليه. سوف نرى الحيوانات البريّة. إنّ اللّيل هو الوقت الذي تقصد فيه الماء لتشرب. لقد لاحظت آثار مخالب.

ثمّ أرانيها. تلك الآثار كانت تفزعنا، معاً. لكن الحيوان لم يأتِ. على أنّنا خلنا أنّنا قد لمحناه وسط البراح. بدا لنا هائلَ الحجم. ظللنا صامتين من الذّهول.

قال غاتزو مؤكّداً: - لم أكن أحلم يا باسكاليه. لقد سمعت خطوَه.

- وأنا يا غاتزو، لمحت أذنيه تتحرّكان.

لم نكن نكذب تلك اللّيلة. بالطّبع لم نكن نرى بوضوح؛ لكن بالتّأكيد ظهرت هيئةٌ، على مسافةٍ بعيدةٍ منّا، وسط البراح. ظهرت واختفت بطريقة غامضة.

t.me/qurssan

وحتّى وإن لم أكن قد رأيت الحيوان حقاً يحرّك أذنيه، مثلما كنت اقول مؤكّداً، إلاّ أنّني أظنُّ على الأقلّ أنّني رأيتُه، وهذا ما يسمح لي ان أضيف، معزّزاً استنتاج غاتزو: - هذا الحيوانُ وحش.

بعدما عُدنا إلى قاربنا، ناقشنا الأمر طويلاً. وفي نقاشنا اتّخذ الوحشُ جسداً. منحناه أقداماً، وذيلاً رهيباً. لمَ ذيل؟ لا أدري. ربّما بسبب الأُسود والفهود. لأنّه بلا ريب مفترسٌ من المفترسات.

- مع أنّنا لم نرَ عينيه تلمعان يا غاتزو.

- لأنّه يغمضهما يا عزيزي باسكاليه. يغمضهما ببساطة لكي يخدعنا.

أجبته منبهراً بهذا الكشف الرّائع: - تظنُّ ذلك يا غاتزو؟

وبنبرةٍ وصيٍّ أجابني غاتزو: -إنّ هذه الحيوانات مليئةٌ مكراً يا باسكاليه.

غمرتني السّعادة. ثمّ استفضنا في النّقاش لكي نحدّد بدقّة طبيعةَ الحيوان، وفصيلته واسمه. لم نكن نريدُه كلباً ولا ذئباً. ما دمنا وضعنا أيدينا على وحشٍ حقيقي، فما الدّاعي إلى ارتكاب حماقة مقايضته بحيوانٍ من تلك الحيوانات التافهة التي يعرفها الجميع. وبما أنّنا لم نستطع تحديدَه، فقد تفتّق ذهنُ غاتزو عن فكرةٍ سحرتني.

قال مؤكّداً: - إنّه راكال[1]. سنسمّيه راكال. حيوان الرّاكال منتشر في هذه الأرض. لقد رأيتَ راكالاً. لا أبسط من هذا...

(1) الاسم مختلق طبعاً، إذ لا وجود لحيوانٍ بهذا الاسم.

t.me/qurssan

... الحقُّ أنّ لا شيء كان أبسط. لقد كان الحيوان راكالاً، لا بل راكالاً هائل الحجم، راكالاً في حجم حمار. وبالتّالي راكالاً خطيراً؛ زد على ذلك أنّه كان راكالاً هائماً، متوحّداً، أحد تلك الرّاكالات السّريعة الاستثارة التي قد يهيّجها أدنى شيء، وتهجم عليك بقفزةٍ مذهلة، قفزة الرّاكال المعروفة التي تتجاوز قفزة النّمر؛ ولا بدّ أنّ هذا الرّاكال يعيث خراباً في هذه البراح التي لا يعيش فيها حيوانٌ أو ينمو نباتٌ. لأنّ الرّاكال يعمُر الوحدةَ، يحكم الخلاءَ، وحين ينضج عمراً، تشتدُّ ضراوته حتّى أنّ ثور المصارعة والجاموس يفرّان منه. والرّاكالُ لا يُصادُ لأنّ لحمَه قاسٍ لا يُطهى؛ وحين يصاب الرّاكالُ يتحوّل إلى خصمٍ رهيب. الرّاكال لا يجوب الأرض إلا ليلاً، لذا هو غير معروف. ثمّ إنّ الرّاكال في بلادنا قد صار نادراً. قريباً سيختفي تماماً. لا بدَّ أنّنا قد لمحنا واحداً من أواخر حيوان الرّاكال الباقية في عصرنا. وقد خلّفنا المشهدُ لاهثَين من المتعة والرّعب.

قلت متحمّساً بعظمة المغامرة: - غاتزو! ينبغي أن نعود إلى مكمن الصّيد.

وكان أن عدنا في اليوم التّالي إلى المرصد، لكنّنا جثمنا على شجرة.

قال لي غاتزو مطمئِناً: - إنّ الرّاكال لا يتسلّق الأشجار. لا أحد أعلمُ منّي به، بالتّأكيد.

قضينا النّصفَ الأوّل من اللّيلْ جاثمين على الفرع الأمتن في شجرة دردارٍ. لكنّ الرّاكال لم يأتِ.

t.me/qurssan

قال غاتزو: - لقد كشف أمرنا، لأنّ الرّاكال، كما يعلم الجميع، يتمتّع بحاسة شمّ مذهلة.

لكنّه، يومين بعد ذلك، أرعبنا رعباً عظيماً.

حوالي العاشرة مساءً، سمعنا طقطقة أغصانٍ تتكسّر عند دغل الضّفة. كانت الشّجيرةُ تهتزُّ؛ والأغصان تتحطّم من كلّ جانبٍ. ضربُ أقدام قاسٍ يرجُّ الماء. ثمّ، نفخ الحيوانُ، وشخر ونخر.

اقترب منّي غاتزو زاحفاً وسط المركب، وهمس لي: - إنّه يعوم يا باسكاليه. حذار! لا تتحرّك. يُقال إنّه يتقن السّباحة!

وهذه المرّة ارتجفت رعباً بحقّ.

ثمّ انصرف الحيوان في نهاية المطاف.

لزمنا الصّمت. وشيئاً فشيئاً دبّ فيَّ النّوم. أمّا غاتزو، الأشجع منّي، فقد مكث يراقب الشّاطئ حتّى الفجر.

ابتداءً من ذلك اليوم تملّكنا القلقُ. كان إحساساً غريباً: الخوفُ من أن يكون خوفُنا حقيقياً. إذ إنّ ذاك الضجيج الذي حدث ليلاً، كنّا قد سمعناه بالفعل. لم نتخيّله. لقد أتى حيوانٌ ما يكسر صمتَ الخلوة التي كنا نظنُّ أنّ لا حيوان يعمرها باستثناء الرّاكال الضاري.

نؤكّدُ أنّ هذا الزّائر المجهول لا يمكن أن يكون إلا راكالاً،

t.me/qurssan

لكنّنا لسنا متأكّدين من شيء. ماذا لو لم يكن الحيوان راكالاً؟ ماذا لو كان مجرّد حيوانٍ من الحيوانات الحقيقية؟

قال غاتزو بنبرة النّاصح: - ينبغي أن نبدّل مرسانا.

وفي المساء انطلقنا في القارب بهدوء.

رسونا بدايةً في الجُزَيْرة رسواً خاطفاً.

حمّلنا حزمة حطب يابس ونارَنا التي حميناها بعناية بالغةٍ في إناء طين. وقد وضعنا إناء الطّين تحت مقعدٍ بقعر المركب.

ثمّ بعد أن حيّينا مأوانا القديم، رحلنا عن شاطئه الآمن.

سلكنا قناةً. وشيئاً فشيئاً بدأت ضفّتاها تقتربان بعضهما من بعض؛ تحوّلت إلى نفقٍ من تلك الأنفاق الغامضة التي تشكّلها الأغصانُ المورقة، وتمضي تائهة عبر أرخبيل الجزر، بين أشجار الصّفصاف والصّفصاف الأبيض الهادئ. هززنا، أثناء مرورنا، قصب البوص المورق، فاضطربت لاهتزازه أعشاشُ طيورِ الحذفِ والزقزاق الخفيّة، وراحت تلك الطّيور تتذمّر منّا عند حافة الماء. وبقدر ما كنّا نتقدّم، كان النّفق يُظلمُ. لكن في أقصاه كانت تلمع بقعةُ ضياء. كنّا نقود المركب ببطء. ولزمنا الصّمت. أحياناً كانت الأوراق تلامس وجيهنا، فتطير منها حشراتٌ مهتاجة وتأخذ في الدّوران حول وجناتنا. وأخيراً أفضَينا إلى مسطّح مائيّ آخر، وكانت تحدُّه من كلّ جانبٍ جدرانٌ من القصب والأشجار.

t.me/qurssan

كانت تلك البحيرة الصّغيرة راقدة. نور المساء بالكاد يضيءُ سطح المياه الخالية. وأشجار حورٍ واسعةٌ تحوطها. متراصةً، كانت أوراقُها تشكّلُ في الخلفية سياجاً معتماً. بعضها كان يرتفع تقريباً عند حافة الماء على ضفاف هشّة. وأخرى تسدُّ الأفق العذب حيث ما يزال ضياءٌ بلوريّ ينير السّماء.

كان الشّاطئُ صخرياً. ومن أعلى جرفه تعتّمُ المياهَ غابةُ سنديانٍ أخضر كثيفة هابطة من التلالِ.

ومع أنّ تلك المياه كانت صافية ومنبسطة إلا أنّها لم تكن تُصدر إلا شعاعاً. وسط البحيرة كانت جزيرة. وترى فيها كنيسةً صغيرة. الجزيرة كلّها مكسوّةٌ بشجر السّرو. أشجارٌ تبدو معمّرةً. وما يزال القاربُ، سائراً على غير هدىً، يمضي منساباً من غير أن يجعّدَ الماءَ؛ كانت الجزيرة تتقدّم نحونا هادئةً شبحيّة. وكانت تبدو، مع انحسار النّهار، هيئةً غير واقعيّة، مقامَ صمتٍ غريباً. إذ لم يكن يصدر من ناحيتها أيّ صوتٍ. على مَدِّ فضاءِ البحيرة، كان كلّ شيءٍ غارقاً في صمتٍ عجيب: النّباتُ، والأشجار، والمياه.

انتهى المركبُ، في اندفاعه، إلى أن رسا بين الجزيرة والسّاحل. رسونا في النّقطة السّاكنة. أرهبنا المكانُ والصّمتُ المخيّمُ عليه. بلغ منّا التأثر حدَّ أنّنا لم نجرؤ على النّطق بكلمةٍ، طيلةَ الوقت الذي استغرقه تناول وجبتنا.

نمتُ نوماً مضطرباً. فقد كانت اللّيلة ضاجّةً. إذ لفرط ما نضطرُّ إلى الصّمت في ظلّ السّكون المهيمن على تلك الأماكن الغريبة،

t.me/qurssan

ينتهي بنا المطاف إلى أن ندركَ، في شكلِ ذبذبات خرساء لحياةٍ لا سبيل إلى وصفها، أصواتاً مبهمةً أو آناتٍ، أو وشوشة آتية من مكانٍ أبعدَ، أو ربّما وقع خطوٍ متردّد على السّاحل، أو أنفاس كائنٍ خفيّ، وتحت مرآةِ المياه الهادئة حركةُ المياهِ الخفيّةِ الغامضةُ.

أتى أحدهم إلى الشّاطئ. ربّما كان الوقتُ منتصف اللّيل. وقد سمعه غاتزو، مثلما سمعته أنا، بوضوحٍ من ناحية الجرف.

في اليوم التّالي، زُرنا الجزيرة. طريقٌ مكسوّةٌ بالطّحالب كانت تُفضي إلى الكنيسة. ويمكن الولوج إليها عبر رواقٍ منخفض. وقد أبلت الأمطارُ وريحُ بيز[1] الواجهةَ المبنية من الحجر اللينّ. فكانت الكنيسةُ تعرضُ وجهاً عتيقاً، احمرَّ من فعلِ الأشَناتِ وطول التّعرضّ للشّمس.

فوق الباب جُعلِت مشكاةٌ، وفي المشكاة نُصِبَ تمثالٌ صغيرٌ من الجصّ الملوّن يمثّل العذراء. وقد انمحت ألوانه. بالكاد يُستشفُّ قليلٌ من اللّون الورديّ على زيّ العذراء. وتحوط تلكَ الصورةَ البسيطةَ كتابةٌ بحروف زرقاء. وكانت الحروف تشير إلى اسم الكنيسة، اسمٌ جميل:

كنيسة عذراء المياه-النّاعسة

(١) اسمٌ محلّي فرنسي لريح باردة تهبُّ من الشّمال على إيطاليا وسويسرا وفرنسا.

t.me/qurssan

كان الحرم فقيراً، وبدا مهجوراً. وعلى المذبح المصنوع من الخشب المطليّ كان ثمّة شمعدانان صغيران من رصاص. وفي المسكن نُصِبَ صليبٌ من قصبٍ. ولصق الجدران المطليّةِ بالجير، ما يزالُ معلّقاً إكليلٌ من الأسل والخوص الأحمر. كان الهواء مشبعاً برائحة الرّطوبة.

خرجنا من الكنيسة لنقوم بجولة. اكتشف غاتزو في الخلف، قبرَين يُواريهما العشبُ المرتفع الذي تنمو فيه بضع زهرات من فصيلة الفيرونيكا.

أشجار السّرو تحوط الكنيسة والقبرين وتشدّ بخناقهما. ولفرط ما كانت الجزيرة صغيرةً، كانت المياه تغمر جذورَ الأشجارِ العتيقةَ؛ وتنعكسُ صورةُ الأشجار على سطح المياه فتُعتّمها.

بعد الجزيرة استكشفنا الجرف وغابة السّنديان الأخضر، لكن من دون أن نجرؤ على التوغّل في العمق البريّ. هناك كانت حدود البراح. صاعدةً منحدراً صخرياً، كانت أجماتٌ من نباتات البقولية والبهشية والقريضة، ترتفع صوبَ ظهر تلٍّ تجتاحه غابة صنوبر.

لا روح في الأرجاء. ولا منزل. وحدَه باشقٌ يحوم في السّماء.

قلتُ: -هذا بلدٌ كئيبٌ يا غاتزو.

فأجابني غاتزو: -أنت محقٌّ. هذا بلدٌ لا يشبه أيَّ بلد. ثمّةَ أرواح.

سألته مندهشاً: - ما الذي يدفعك إلى قول هذا؟

t.me/qurssan

غمغم: - ألم تسمَع ما سمعتُه أنا هذه اللّيلة؟ كانت ثمّة حركة. روح من الأرواح أتى.

أجبته: - أنت محقٌّ في هذا. لقد سمعتُ. وأنت تعرف ما كان ذلك؟ كان روحاً؟

- كلاّ يا باسكاليه، لا أعرف. لكن يمكن أن نرى، إن نحنُ كمنّا. قد يأتي الزّائر هذه اللّيلة أيضاً.

أخذ قلبي يخفق.

واصل غاتزو: - إنّ القمر يغيب نحو السّاعة العاشرة. فتُظلِم الدّنيا. ثمّة غارٌ كبيرٌ عند سفح الجرف. سنرسو فيه.

تملّكني الخوف. أدرك ذلك فوراً.

قال: - باسكاليه، ينبغي أن نرى ذلك. نحن رجلان.

وإذ صمتُّ، أضاف: - لسنا نبحر عبثاً. إن أردتَ أن تبقَى هنا، فابقَ. سأذهب بمفردي.

شعرت بالخزي؛ لكنّ خوفي تعاظم لدرجة أنّني أجبتُ غاتزو:

- إنّ ما تفعلُه محرّمٌ. لقد حلّ علينا العقابُ.

هزّ كتفيه، ولزم الصّمتَ حتّى اختفى القمر. وإذّاك نزع ملابسَه، ووضعها على رأسه، ثمّ انزلق في الماء، وسبح صوب الجرف.

رأيتُه يتحرّك على الشّاطئ. لا بدّ أنّه ارتدى ملابسَه مرّةً أخرى. ثمّ اختفى.

t.me/qurssan

كان القارب راسياً على مقربة من الجزيرة. ولم يكن بالإمكان ان نلمح شيئاً من الشّاطئ، إذ إنّ ظلال الأشجار كانت تحجبه.

وكنت أنا قد اتّخذتُ موضعي على مقعد المقدّمة. ومن هناك كنت أستطيع أن أراقب الشّاطئ كما أشاء.

لم يكن يتحرّك فيه شيء. طال الانتظارُ، لكنّني لم أرغب في النوم. كنت أريد أنا أيضاً أن أرى شيئاً، وإن من بعيد.

تجلّى الرّوحُ حوالي منتصف اللّيل.

سار على امتداد الشّاطئ، أزاحَ دغلاً، ونزلَ إلى الضّفة. وقد بدا لي في شكل بقعة بياضٍ. هام البياضُ لحظةً، ثمَّ دنا من الماء. وإذّاك فقدتُ صوابي. أطلقت حبل القارب، ثمّ حرّكتُه بطيئاً بواسطة القصبة. انقاد لي وسار منساباً على الماء الأسود.

قلت لنفسي: إنّ الأجواء مظلمةٌ جداً، فيستحيل أن يراني الرّوح. فإن كنت أنا أراه، فإنّما لأنّه أبيض. وعلى الرّغم من بياضه، لا أستطيع أن أميّزه. ألَهُ شكل؟

وكنت أتقدّم صوبَه؛ لكنّه إذ ظلّ ساكناً على الضفّة، لم يزل يبدو إلا بقعةً في الظلّ. ولا بدّ أنّه من موقعه ذاك وسط الظلّ، لم يكن يراني أتقدّم نحوه. فجأةً أطلق صيحةً خفيفة، ورأيتُه ينبثق قرب الشّاطئ.

سمعتُه يصرخ: «يا إلهي! إنّه روح!».

دهشتُ لأنّه خالني روحاً.

وإذ استعدت هدوء نفسي، سألته: - وأنت؟ ما اسمك؟

t.me/qurssan

لاذ الرّوح بالفرار، لكنّ غاتزو وثب من مكمنه، وأمسك به في الطّريق.

قال لي: - أمسكت بها. إنّها طفلة. يا للعجب!

بلغَ القاربُ الضفّة. انضممت إلى غاتزو. كان يمسك البنت من معصميها. ولم تكن هي تقاوم. كانت تبدو في مثل سنّنا، لكنّنا لم نكن نراها بوضوح.

أرهقها غاتزو أسئلةً: ماذا تفعلين هنا؟ من أنت؟ أين تسكنين؟

لاذت بالصّمت، لكن لم يكن يبدو عليها الخوف منّا.

قال لها غاتزو بنبرةٍ ألطف: - لن نؤذيك.

ثمّ أرخى قبضته من على معصميها، فقالت:

- أنا أعرفكما. أنتما اللّذان أتيتُما عبر الشّعبة الميّتة، منذ ما يقارب أسبوعين. إنّهم يبحثون عنكما في كلّ القرى.

جمّدني الرّعبُ، لكنّ غاتزو سألها بهدوء: -حقاً؟ يبحثون عنّا؟ من؟

- في قريتنا، بييروريه، تبحث عنكما شرطة الرّيف.

- وكيف تبحث عنّا؟ قولي!

- يطوفون بالطّبل، صباحاً في الحادية عشرة، ويتلون إعلانًا بعين المكان. ثمّ بعد ذلك ينصرفون. ذلك دأبُهم منذ أيّام أربعة. الجميع يعرف الخبر.

t.me/qurssan

- نستطيع إذن أن ننام مطمئنّين، فأنت لن تقولي شيئاً. أليس كذلك؟

أجابته البنتُ: -أنا لن أقول شيئاً. لكن ثمّة شخصٌ آخرُ يبحث عنكما. وهذا قادرٌ على أن يجدكما.

وهذه المرّة اعترى غاتزو القلق: - كيف هو؟

- رجلٌ طويلٌ نحيل، أسود البشرة. وقد أتى عبر النّهر في قاربٍ متهالك.

فكّرتُ مرعوباً: - إنّه بارغابو. لقد وقعنا!

وواصلت البنت: - إنّه هنا منذ أمس. وصل في الوقت نفسه الذي وصلت فيه العرائس.

سألها غاتزو بصوتٍ راجفٍ: - أيّ عرائس؟

عرائسُ المسرح الصّغير. غداً سيعرض المسرح تحت شجرة الدّردار. يأتون كلّ سنة. يعرضون مساءً، بعد العشاء. هو نفس المسرح، يأتي كلّ عام. في السّنة الماضية كانوا اثنين، أمّا هذه السّنة فلم يأتِ إلا رجلٌ شيخ.

ثمّ صمتَت، وصمتَ غاتزو كذلك.

وفجأةً قالت: - ينبغي أن أعودْ إلى المنزل.

رافقناها حتّى الغابة. وكانت تتقدّمنا. عيناها تخترقان الظّلام، مثلما تفعل عينا غاتزو. وعند حافة الغابة توادعنا.

t.me/qurssan

تحت الأشجار كانت الظّلمة حالكةً لدرجة أنّ غاتزو اندهش كيف للطّفلة ألاّ تخافَ.

سألها: - لمَ تأتين ليلاً إلى ضفّة الماء؟

وإذ صمتَت ألحّ غاتزو في السّؤال بنبرةٍ لطيفة. كان صوتُه لطيفاً جداً لدرجة أنّه دفعها إلى الكلام في نهاية المطاف.

لقد توفي والداها، فكُفلت وهي في سنٍّ صغيرةٍ جداً. هي خادمةٌ عند أناسٍ طيّبين، الجدُّ ساتورنان والجدّة ساتورنين. وليس لهما إلا ولدٌ وحيدٌ، عمره اثنتا عشرة سنةً واسمُه كونستونتان. وذات يومٍ انطلق ثلاثتهم في سفرٍ طويل. وتركوها بمفردها مع خادمةٍ عجوزٍ تتذمّر طيلة الوقت. يُقالُ إنّهم يعيشون بعيداً في بلدٍ كئيب. والرّب وحدَه يعلم لمَ. وهناك، بالطّبع صاروا هم أيضاً حزينين. لكنّهم لا يجرؤون على العودة إلى منزلهم. فصارت هي تأتي ليلاً لكي تصلّي لعذراء المياه النّاعسة، كي تعيدهم إلى القرية حيث يشتاقهم الجميع.

هزّتنا حكايتُها كثيراً. وكانت الطّفلة وهي تحكيها أيضاً مضطربة. وفي نهايتها بكت.

سألها غاتزو وقد أخذ به التأثّر: - ما اسمُك يا صغيرة؟

أجابته: - ياسنت.

وواصلت البكاء.

في تلك اللّحظة سمعنا وقع خطواتٍ في غابة الصّنوبر. خطوات غريبة، خطوات حيوان.

t.me/qurssan

مرعوباً قلت: - إنّه حيوان الرّاكال.

أجابتني الصّغيرة: - كلاّ. إنّه حماري. لقد أتى يأخذني.

لمحنا ظلاً. ثمّ خرجت البهيمة من الظّلام.

نادته الصّغيرة: «تعال، يا عزيزي الجميل كيلوت[1]. اقترب بهدوء. لا ينبغي أن تخيفهما هذه المرّة أيضاً».

اقترب الحمار. وكان مدرّباً على نحوٍ رائع. (كان اسمُه كيلوت).

قالت ياسنت: - إنّه حمارُ البلادِ المسحورُ.

ربّما كانت تمزح.

فجأةً صارت حزينة.

قالت: - غداً لن آتي. أريد أن أحضر عرض المسرح الصّغير. سيقدّم عرضاً للأطفال في ساحة القرية. في هذه الفترة القمر يكون مضيئاً كلّ ليلة.

لزمنا أنا وغاتزو الصّمتَ. إذّاك امتطت ظهر حمارها، وانطلقا معاً في الغابة كأبسط ما يكون الأمر.

في اليوم التالي تطاولَ علينا النّهارُ. تسكّعنا بلا متعة. في الأيام السّابقة كان كلّ شيءٍ يشغلنا: طيرٌ، ذبابة، ضفدع، فراشة. والآن، بلا سبب، فترت همّتُنا.

---

(1) قصّة ياسنت وحمارها كيلوت بتفصيل أكبر في قصّة «الحمار كيلوت» للمؤلّف.
Henri Bosco: L'Âne Culotte, 1937.

t.me/qurssan

صار غاتزو يتجنّبني. بالكاد يجيبني. مجدّداً اكتسى تلك السّحنة الصّارمة التي لم أكن أحبّها. هيأته الشّاردة كانت تباعدُ بيني وبينَه. كنت أحسّ نفسي وحيداً. بقلبٍ مثقلٍ بالهمّ، لذتُ بالصّمت.

ولمّا شارفت الظّهيرةُ على الانتهاء، لم أعد أطيقُ صبراً. كان القارب آنذاك راسياً أسفل الجرف. قفزت إلى البرّ وانطلقت في نزهة.

تحت أشجار السّنديان كان الجوّ حارّاً، لكن النّور كان بديعاً، والسّناجب الصّهباء، التي لم تكن فزعةً لمرآي، تراقبني بفضولٍ كبير من علياء أغصانها. أبهجني ودّها، وبتلك اللامبالاة المألوفة في من هم في سنّي، نسيت همّي وأنا أسير في الغابة، حيث تقفز من شجرةٍ إلى شجرةٍ طيور الورشان الزّرقاء، وطيور الصفّير الذهبيّ بأجنحتها السّوداء. وأعلى منها، وسط الأوراق، طيورٌ أخرى تزقزق. وبما أن الغابة كانت تمضي مرتقيةً تلالاً عاليةً، ما لبثتُ أن بلغتُ مُرتَقباً أُشرف منه على جزء كبير من البلاد.

إذّاك توقّفتُ وجلست على حجر.

ولمّا جنحت الشّمس إلى الغروب، من بعيدٍ بدا النّهر برّاقاً. على مركبٍ كبيرٍ منبسط، رجلان يصيدان هادئين بالشّبكة. عن يساري أشجار السنديان الخضراء، وغاباتٌ من الصّنوبر تتسلّق خاصرَة التّلال. ومع حلول المساء ارتسمت على الجبال تموّجاتٌ زرقاء وأخاديدُ بنفسجية، بينما ظلّت قممها مشمسةً.

وإذ جاوزتُ مرتفعاً، لمحتُ طرف قريةٍ، حيثُ خمسةُ منازل أو ستّة، وبرج، وناقوس صغير. وخلف النّاقوس، ترتفع في السّماء

t.me/qurssan

ثلاثة أدخنةٍ أو أربعة. لا بدّ أنّ هناك يتوارى الجزء الأكبر من هذه القرية. ومنتصفَ التلال كان يوجد الدّرب المفضي إلى القرية. كان الرّيفُ المحيطُ قفراً؛ لكنّ حماراً يسير على الدّرب. حماراً منفرداً، ليس يقودُه حمَّارٌ. ومع ذلك كان يسير في طريقه سوياً لا يزيغُ. كان يحمل سلّتين؛ ويسير بخطى وئيدة، رزيناً، في اتّجاهي.

وفجأةً ألهمت: «إنّه حمار ياسنت. سأذهب لرؤيته».

انتظرتُ خافق القلب. لكن فجأةً انعطف الحمار يميناً واختفى خلف حزمةٍ من أشجار الصّنوبر.

ثمّ على الفور تقريباً شرع المساء في الهبوط. لم أنتبه إلى الأمر بدايةً. وحين وعيتُ كان الظّلام قد حلّ، فعجّلتُ بالعودة إلى المرسى.

كان القارب ما يزال هناك، لكنّ غاتزو اختفى.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

عارضُ الأرواح

t.me/qurssan

t.me/qurssan

إلى الأبد.

أيقنتُ من ذلك على الفور؛ لكنّني رفضتُ التّصديق. لذلك مكثتُ أنتظرُ.

قلت غير مصدّقٍ: «سوف يعود، لا بدّ أنّه قد ذهب يفتّش قرب جحر أرانب. أخطأتُ حين تركتُه بمفرده. لا شكّ في أنّه قد ملّ». لكن حين أبطأ عنّي، بدأت شيئاً فشيئاً أفقد الأمل في عودته. ولأواسي نفسي ضاعفتُ رجائي. لكنّ ذلك كان بلا فائدة، إذ كنت أعلم علم اليقين أنّه قد رحل.

كلّ الإشارات كانت تخبرني أنّني قد صرتُ وحيداً: الحيوانات وصياحُها، المياه وصمتُها. كلّ شيء. حتّى الضّفدع الصّغير الحزين الذي كان ينقُّ في مكمنه وسط باقةٍ من جرجير الماء عند طرف البحيرة. فهو أيضاً كان وحيداً. وكذلك البومة السّمراء ذات الرّأس الكبير، المختبئة بين أوراق شجرة حورٍ على الضفّة الأخرى. كانت تبثُّ شكواها، بانتظامٍ، إلى بومة سمراء أخرى تقيمُ على

t.me/qurssan

سروةٍ وسط الجزيرة. وكانت ساكنةُ السّروة تجيب شكوى أختها الموجَعَة، بصبرٍ وكثير من الشجن. وكانت محاورة الطائرين الكئيبة تعبر بحزنِ البِرك الموحشة. وإن لم يكن يصدرُ عن تلك البِركِ الهادئة تماماً، أيُّ صوتٍ يغتمُّ له قلبي، فإنّها كانت تخاطبُني بصمتها. كانت تلوذ بالصّمتِ، وفي صمتها كنتُ أدرك وحدتي.

ربّما كنتُ خائفاً، لكنّ الحزن الذي خلّفه في نفسي تركي وحيداً، كان يغشى أيَّ خوفٍ. لم تبقَ في نفسي إلا هواجسُ. لم أكن أتخيّل إلاّ أخطاراً مبهمة: الأصوات، الظّلال، أو مجرّد نَفَس.

ولمّا ارتفع القمرُ في السّماء، تعاظمَ حزني. وحين كنت أكتشف في نورِ ضيائه امتداد البِرَك الخلاء، كنت أقف على شساعة وحدتي.

كنت وحيداً لدرجة أنّني كنت أهمس في نفسي باسم غاتزو؛ لكن لم يكن يندّ عنّي صوتٌ، لفرط ما كنت أخشى أن يرتدّ إليّ صدى صوتي وسط صمت هذه البرك الخلاء...

كنت أقول لنفسي: «إنّه في القرية، لكن كيف له أن يذهب من دوني؟».

ذاك أنّ البقاء وحيداً في هذا الفضاء الموحش، لم يكن أقسى عليّ وَقعاً من خيانة غاتزو. لقد مزّقَ برحيلِه روابطَ أجمل صداقةٍ نسجتُها. كنت أتألّم غاية الألم. لأنّني أبداً لن أجد رفيقاً مثلَه؛ رفيقاً أقوى منّي، وأشجعُ، وأمهر. كان أوّلَ صديقٍ أعرفُه.

شعورٌ غامضٌ كان يتلبّسني، فينتابني الخوفُ من أنّه لن يعود أبداً. لذا، وقد بلغ منّي اليأسُ كلّ مبلغ، قرّرتُ أن أترك ذاك المرسى

t.me/qurssan

الكثيب، حيث كانت الوحدةُ تسيطر عليَّ، وأن أنطلق بحثاً عن رفيقي.

افترضتُ أنّه سيكون في تلك القرية التي لمحتُ بعضاً من منازلها ساعة الغروب.

أتذكّر الدّرب الذي كنت قد لمحتُ فيه الحمارَ يخبّ. بدا لي سهلاً بلوغه عبر أشجار السنديان. فانطلقت بدايةً صوب تلك الغابة التي يضيءُ البدرُ المكتملُ حافتها. لقد كان لي يومها، خيرَ معينٍ، إذ أضاء طريقي، وأراحتني بعض الشّيء عذوبتُه الفيّاضة، أراحتني بما يشبه فعل السّحر. إذ إنّ القمر يسحر النّفوسَ أكثر ممّا يفعل أيّ كوكبٍ آخر غيره. ضياؤه شديد القرب إلينا! نحسّهُ متلطّفاً، حنوناً، وحين يكتملُ بدراً أيّام فصل الرّبيع ترقُّ صداقتُه حتّى لَيفيض الرّيفُ بأكمله عذوبةً. آنذاك لا يعرف الأطفالُ، ممّن يستيقظون ليلاً، نجياً أشدَّ منه فتنةً. عبر النّافذة المفتوحة يضيءُ غرفتَهم، وحين يعودون إلى النّوم، يهدهد رقادهم بأجمل الأحلام. وإنّ حُلما من تلك الأحلام هو ما كنت مستغرقاً فيه بلا ريب.

قطعاً، أنا لم أكن راقداً في غرفتي، لكن أنّى كان لي أن أفعل كلّ ما فعلته تلك اللّيلة، وأرى كلّ ما رأيته، وأسمع كلّ ما خلت أنّي قد سمعته، لو لم أكن قد رأيتُه في حلم؟

كانت غابةُ السّنديان غارقةً بأكملها في ضياء القمر. خلَل الأوراق السوداء كانت أشعّته تنزلُ في هيئة أعمدةٍ زرقاء. الأشجارُ العتيقة يغمرُ أغصانَها كلَّها الأزرقُ السّماويُّ.

t.me/qurssan

أمّا أنا فإذ خرجتُ من الظّلِ، دخلتُ في حزمةٍ من تلك الحزم المنيرة، فصرت على الفور جسماً صغيراً معجوناً بالضّوء والقمر.

اجتزت الغابة من غير عقباتٍ، فرأيتُ على الفور الدّرب. لم ألتمسه، وإنّما أتاني من تلقائه، طبيعياً، مغموراً بضوء القمر. وصار من فوره ألوفاً، حتّى إنّي استسلمت إلى عذوبتِه الرّؤوم. كان درباً ليلياً جميلاً، درباً من تلك الدّروب التي تسايرُك في مشيك، والتي تحادثك، وتسرّ إليك طولَ الطّريق بأسرار شتّى. دربٌ يسري عليه المرء بخفّة، خلواً من كلّ خوف. إذ هو دربٌ من تلك الدّروب التي حفظَت الكثيرَ من براءتها، فليس لها أن تضلّك. عليها لا يُعدُّ الزّمان [أو يعتَدُّ به]، والمكانُ ينصهر انصهارَ صداقةٍ في متعة السُّرى ليلاً. فلا يدري السّاري به من أين المقدَم وإلى أين المقصد؛ ومتى كان انطلاقهُ، ومتى يصلُ؛ وهل أصلاً سيصل؟ إنّها دروبٌ لا نهاية لها، وإن حدث وفارقتك، فإنّما تفارقُك وقد عهدت بك إلى بلدٍ أجملَ وأروع.

أحدّثكم عن علمٍ وتجربةٍ، لأنّ دربي تركني...

بدا الدّربُ كأنّما لم يُجعل على جناح تلك التلال إلا لكي يقودني إلى أمْيَز قريةٍ في العالم. وهل كانت القريةُ أصلاً من هذا العالم؟... بالكاد كان المرء ليصدّق ذلك، لفرط ما كان كلّ شيءٍ يبدو غريباً، وغير مألوف... ومرّاتٍ عديدة، تلك اللّيلة، خلتُ، لسذاجة عقلي، أنّني في قريةٍ من قرى الجنيّات الطّيبة، قريةٍ شيدت عند تخوم الفردوس، ليلهو فيها الأطفال الحالمون، غيرُ العاديّين.

t.me/qurssan

دخلتُ القرية من أعلى. كانت الشّوارع قفراً، والبيوت تبدو مهجورةً. ومع ذلك كانت الأجواء ما تزال تضوع برائحة الخبز السّاخن وحساء الحنطة. قطعاً، بالكاد غادر النّاسُ القريةَ. فلا صوت، ولا نور قنديل. حتّى الكلاب التي تكون شرسة عند مداخل القرى، كانت قد غادرت مع أصحابها. الدّجاج هجع. ولا قطّ في المكان. لقد هاجروا إلى مكانٍ آخر.

وما زلتُ أتبع الزقاق المنحدر، سائراً في الصّمتِ على غير هدى، من منزلٍ إلى منزلٍ، حتّى أفضيتُ فجأةً إلى ساحةٍ صغيرة.

وهناك انكشف اللّغز.

كانت القرية جميعها هناك، أناساً وكلاباً. وكان يبدو عليهم الانتظار. كان يبدو عليهم الانتظار بثقة. إنّها قريةٌ صبورٌ وطيّبة. الأمرُ واضحٌ، يكفي النظرُ إلى وجوه النّاس. وجوه تدلّ على الحصافة والمسالمة، قد انتظمت في صفوفٍ عديدة.

أوّل الصّفوف، جلوسٌ برصانةٍ، وفي وسطهم يجلس العمدة كأنّما على عرش.

كان العمدة أمرد، ذا شعرٍ أشيَب قاسٍ. وقد تزيّن في ملبسه: ياقةٌ مستعارةٌ منشّاةٌ تبرز من سترته الحمراء الدّاكنة، ولا شكّ في أنّ الياقة المُستعارة تزعجُه، إذ لم يكن يجرؤ على الالتفات. لذا كان ينظر قدّامه بصبرٍ بالغ، وفي ذلك فخرٌ كبيرٌ له، باعتباره عمدة.

t.me/qurssan

واحتراماً لسكونه، ظلّ الآخرون أيضاً ساكنين. عن يمينه جلس أوّلاً الخوري المسنّ. وبدافعٍ من الاعتياد كان يشبك يديه أمام بطنه، وقد اتّخذ وجهه الأحمر السّمين، بسبب الملابسات الحاضرة، هيأة عطفٍ وخشوع.

بجانبه الكاتبُ العدل، وهو شيخٌ قصير، نحيل الجسم كمسمارٍ، ذو فمٍ ساخر، وكان يحكّ أرنبة أنفه المدبّب.

أما الطبيب البطينُ، فكان يرتدي سترةً من صوف الألبكة[1]، ويعتمر قبّعة قش، وكان منهمكاً في مسح نظّارته الذّهبية بمنديلٍ ذي مربّعات، لكي يرى على نحو أفضل. وكان هو أيضاً رجلاً مسنّاً، وجهُه متورّد ملتحٍ. وعن شمال العمدة مباشرةً جلس شرطيُّ الرّيف نعسانَ. كان يبدو أسنَّ من الجميع، لكن كانت له لحيةٌ عسكريةٌ قصيرة، ويحيط قبّعتَه العسكرية شريطٌ من فضّة.

وبجانبه جلس في أبّهةٍ شيخٌ عريض الكتفين، وقد أرخى على صدره لحيةً وافرة. وبين الفينة والأخرى كان يرفع أنفاً سميناً، ليشمَّ الهواءَ؛ وفي وجهه المدبوغ كانت تستقرّ عيناه ساكنتين. كان الرّجلُ الملاحَ سابقاً، مفخرةَ القرية.

وتحت كتفهِ يختفي بائع التّبغ، وهو رجل قصيرٌ بدينٌ، على وجهه الغضوب شاربٌ. وكان هذا الرّجلُ الستينيّ المتقاعدُ، الوحيدَ في الصّف الذي لم تكن ملامحه مستقرّةً في حالٍ من الرّضا.

---

(١) من الحيوانات المستأنسة في أمريكا الجنوبية، بين الخروف والجمل، ويستخدم صوفه في النّسيج.

t.me/qurssan

كان ذاك صفّ عليّة القوم.

خلفهم اجتمع القرويون.

أوّلاً النّساءُ، في ثلاثة صفوف، يميناً جميع الجدّاتِ، وفي الوسط نلْ النّساء المتزوّجات، أمّا الصبايا فانتظمنَ يساراً ولم يكففن عن الضّحك والوشوشة.

ثمّ خلف النّساء، الرّجالُ. وقوفاً في صفوف أربعة. كانوا من كلّ شكلٍ وحجمٍ، بعضهم حلقوا شواربهم وبعضهم أعفوها. لكن كان يطبع وجوههم جميعاً نفسُ تعبير الهدوء والبساطة البالغة.

كان الجميع ينظرون إلى الجهة نفسها. كانوا ينظرون شطر شجرة دردارٍ هائلةٍ تغطّي أوراقُها، مثل قبّةٍ، كامل السّاحة.

وفي الأغصان الخفيضة عُلّقت تشكيلةٌ متنوّعةٌ، متعدّدة الألوان، من الفوانيس والقناديل الفينيسية الكبيرة.

تحت شجرة الدّردار نُصب مسرحٌ صغيرٌ من نسيج. وعند كلّ جانبٍ من هذا المسرح، أمام صفّ الصّفوة، في موضعٍ بارزٍ، صُفَّ الأطفالُ على مقاعد دراسية. الأولادُ يميناً، والبناتُ شمالاً. وهناك كانوا ينتظرون هادئين هدوءاً يضاهي هدوء الكبار.

حتّى تلك اللّحظة كان ستار المسرح الصّغير مُسدلاً. لكن كان بالإمكان تأمّل رَسْمةٍ عليه. كانت الرّسمةُ تمثّلُ حماراً. وكان الحمارُ جالساً على مقعدٍ. يضع نظّارات ويمسك بين يديه كتاباً. أمامه طفلٌ، جاثياً على ركبتيه، يصغي إليه. كان الحمارُ يلقّنُ الطّفلَ درساً. فوق

t.me/qurssan

الحمار والطّفل، قناعٌ مكلّلٌ باللّبلاب، يبتسمُ برقّة ومكر، خافضَ العينين.

وخلف المسرح كانت الكنيسة: رواقٌ غائرٌ وظليل.

وفوق الكنيسة، والظُّلمة، والمسرح، والقرويين، والفوانيس والقناديل الكبيرة، وشجرة الدّردار الهائلة، تطفو برّاقةً السماءُ الواسعةُ، وقد زانها قمر أبريل/ نيسان.

لم أكن في البداية أدري حقاً ما يحدث. لقد كنت مسروراً لدرجة تعوق الفهم؛ ثمّ، لربّما لم يوضع مثل هذا العرض الرّائع إلا ليُبهج العيون والآذان.

سمعنا في البداية، خلف المسرح، صوتاً متهدّجاً، لكنّه كان صوتاً أخاذاً مفعماً بالحكمة. على الفور لامس الصّوتُ قلبي. كان الصّوت يُعلنُ عمّا يتحضّرُ خلفَ السّتار؛ يعلن عن أسماء الشّخصيات، ويطلب منّا أن نصدّقهم، لأنّهم لأجلنا سوف يضحكون، ويبكون، ويكرهون، ويحبّون، أي يعيشون ويموتون، مثلما يعيش ويموت جميع البشر. بعد هذا الخطاب القصير، ارتفع السّتارُ عن بستانٍ وبُستانيّ. في البستان تنمو ثمارٌ هائلة الحجم؛ وكان البستانيّ فخوراً بثماره، فخوراً لدرجة أنّه كان ينظر بازدراءٍ إلى باقي البستانيّين. وكانت له امرأةٌ شابّةٌ وصبيٌّ آيةٌ في الحُسن. وكانا معاً في المشهد يركضان تحت الأشجار محاولَين الإمساك بفراشات زرقاء. وكان البستانيّ فخوراً بزوجته وابنه، قَدرَ فخره تقريباً بثمَامِه وبرقوقِه.

t.me/qurssan

لذا كان يمنعهما من أن يخالطا جيرانهم من صغار البستانيّين؛ وكانا يطيعان أمره.

على أنّ شحّاذاً طَرَقهم ذات يوم، وكانَ شيخاً متعباً أرهقه الجوعُ والعطش. وكانت تتدلّى خوخةٌ إلى الطّريق، من فوق السّياج. قطفها الشّحاذ، وكان يتأهّبُ لأكلها. وفجأةً، ظهر البستانيُّ المتغطرس، محمرّاً من الغضب، وانقضّ على الشّحاذ، فأجبره بضرب العصا على ترك الثمرة. سقطت الثمرة على الطّريق، وانصرف الشّحاذُ مستسلماً من غير أن يشكو.

لكن، لعلمكم، لم يكن الشحّاذُ سوى القدّيس تيوتيم، وكان يسيح في تلك الأثناء ليقضيَ أعمالَه التي هي أعمالُ الربّ.

ثمّ يتغيّرُ المشهدُ، فيحضر الربّ بنفسه على غمامةٍ. وعلى الفور يبدي غضبه الكبير، فيكلّمُ البستانيّ بألفاظ جعلت الحضور جميعاً يرتعدون خوفاً، خاصّة منهم الفتيات. ثمّ انصرف، مطلقاً سيلاً من الوعيد، وفي خلفية المسرح كان يُقرعُ طبلٌ محاكياً هزيمَ الرّعد. إنّ الربَّ الطيّب سوف ينتقمُ لقدّيسه.

ثمّ يعود المشهد إلى البستان الأرضيّ. الطّفلُ يلعب. كان يُرى وهو يركُض غير آبه بشيء؛ مع أنّ أسفل خوخة القدّيس تيوتيم، كانت ساحرةٌ عجوز تراقبه بعينين تتلظّيان. وكانت قد التقطت الثمرة من الطّريق.

آه! كم كانت الثّمرة رائعةً! ما تزال إلى اليوم شاخصةً أمامي.

وبعدما لحستها السّاحرة، وضعتها أسفل الشجرةِ، يانعةً ورديّةً.

t.me/qurssan

مرّ الطّفل، ورآها، فأكلها، ثمّ سقط مغشياً عليه. انقضت السّاحرة عليه، وحملته محلّقةً به في السّماء.

تمرُّ سنوات. يبدو في المشهد مخيّمُ غجر. هناك يعيش الطّفل. لقد كبر كثيراً، لكنّه نسيَ كلّ شيء. فقد دسّت له السّاحرة في الثّمرة سُمّاً. وحين عضّ عليها ترك فيها كلّ ذكرياته. لذا فقد كلّ خِصلةٍ خيّرة. إنّه الآن أشرُّ فتيان العشيرة؛ لا أيسر عنده من الكذب، والسبّ، والغشّ، والسّرقة، ولأدنى سبب قد يشهرُ سكّينه. الجميع يهابونَه.

وماذا عن أبويه؟

لقد نسيهما منذ أمدٍ بعيدٍ، ما دام قد فقد ذاكرته. لكن، هُما، ما يزالان يذكرانه. وما يزالان شقيّين. وما تزالُ الثمار تينع حُلوةً نضيجةً كسابق عهدها، وافرةً على كلّ الأشجار، لكنّ البستانيَّ ليس يفكّر حتّى في قطفها. لقد أسنَّ وشاخَ. ولكم أن تتخيّلوا أنّه يبكي ليلَ نهار خفيةً عن زوجته.

ابيّضَ شعره من الحزن؛ وما عاد في قلبه ذرةٌ من كِبْر.

وما يزالُ وزوجته يأملان.

يقولان: «سوف يرجع الصّغير» وينتظران.

لذا كانا يتركان الباب مشرعاً، ليلاً ونهاراً، حتّى إذا ما عادَ، دخل من غير أن يضطرّ إلى أن يناديهما.

ثمّ ها ذات ليلةٍ يصلُ الغجرُ. تخفّوا في الغابة.

وفي اليوم نفسه أتى شحّاذٌ عجوزٌ يطلب الصّدقة. كان عطشانَ

t.me/qurssan

جوعانَ. وكان البستانيُّ قد أخذ العبرة، فقدّم إلى الشّيخ سلّةَ خوخ. لكنّ الشّحاذ لم يتناول منها إلا ثمرةً واحدةً، فعضّها من دون أن يأكل منها. وقال للبستانيّ: «إحتفظ بها بعناية عند رأس سريرك، واصبِر. ذات يومٍ سيأكلها شخصٌ». ثمّ اختفى. وكان الشّحاذ القدّيس نيوتيم.

أبصر الغجرُ المتوارون في ظلمات الغابة، البستانَ البهيج. وقالوا بصوتٍ واحدٍ: «إنّ البستانيّ غنيّ. سوف نسرقه». وقد وقعت القُرعة على الطّفل الماهر في السّرقة.

غاب القمرُ، وحلّ الظّلامُ، ونعبت البوم، فتسلّل الطّفلُ إلى البستان. بلغ المنزل، ووجد البابَ، والتمس القفل. لكنّ يديه لم تلمسا إلا الفراغ... إنّ هذا المنزل العجيب، يترك بابَه مشرعاً، في عزّ اللّيل، غير خائفٍ من اللّصوص...

تردّد الطّفل الشّرير، ارتعد...

ومع ذلك تقدّم بدافعٍ من اعتداده بنفسه؛ لكنّه يشعر بالحرّ، حنجرته ملتهبة، يقتله العطَشُ. فجأةً يكتشف غرفةً. شيخٌ ينامُ على ظهره في الغرفة. مصباحٌ ينير وجهه. وقريباً منه، عند رأس السّرير، في طبقٍ مصبوغٍ برسوم، خوخةٌ يانعةٌ، عليها أثر أسنانٍ يبدو أنّها بالكاد قد لمستها.

مدّ الطّفل اللّصُّ يده إلى الخوخة وحملها إلى فمه. ما ألذ مذاقها! ما أعذبها! لكنّها ليست ثمرة! إنّها شيءٌ يملأ جسدك بأكمله، يهزّ روحك كلّها! أين أنا؟... صرخ!...

t.me/qurssan

إستيقظ الشّيخُ الطيّبُ. هرعت إليه زوجته.

آه! إنّه ابنُهما. إنّه هنا، يراهما، يتعرّف عليهما، ينخرط في البكاء.

ثمّ يظهر الربُّ في سحابته ويهزُّ رأسَه راضياً.

ثمّ نزل السّتار.

في تلك الأزمنة كان النّاسُ في قُرانا ما يزالون بسطاء، وحين يستمتعون فإنّما يستمتعون بحقّ. وتلك البساطة في التّفكير، تمكّنهم من أن يدركوا على الفور مغزى القصص؛ كانوا سعداء بسذاجتهم، لأنّها توافق حكمتهم الخاصّة أيّما موافقة. قد تبدو لنا تلك الحكمة، من حيثُ هي مختزلةٌ في بضعة أفكار واضحةٍ، موجزةً؛ ومع ذلك هي الكنز المستخلص من تجربة عتيقة.

وإذا كانت تلك المعرفة الحقُّ ما تزالُ حيّةً، فإنّما لكونها ليست معرفةً كئيبة. إنّها معرفةٌ تستدعي خيالَ البشر وتُلهمُه. وإذّاك تصيرُ، كما هو الشّأن في هذه الحكاية، وسيلةً للتّرفيه، ويكونُ المغزى الكامن فيها جميلاً لدرجة أنَّ حكمتَهُ تفتِنُنا.

والظّاهرُ أنّها، تلك اللّيلة، قد فتنت كلّ الرّؤوس بالقرية. طيلة العرض، ظلّ العمدة فاغراً فاه. وكان الخوريّ يناشد الملائكة، وحين تجلّى الربُّ رسمَ علامةَ الصّليب. وأبدى الكاتب العدل والطّبيبُ رضاهما. أمّا الملاح، فأربع مرّاتٍ، كاد أن يقوم من

t.me/qurssan

مجلسه لكي يخنق السّاحرة المؤذية والغجر الغدّارين. وجد الحضور صعوبةً في السّيطرة على أنفسهم. صفوفٌ بأكملها من القرويّين تبدي انفعالاتٍ قويّة. يصيحون هوو! وهاا!! صياحٌ في شكل هدير صامتٍ يشي بالغضب أو السّخط أو الشّفقة. أمّا الأطفال، فلم يكونوا يقولون شيئاً، لكنّ عيونهم كانت جاحظة بغرابةٍ. والنّساء كنّ منوّماتٍ. لقد أمسك بهنّ ساحرٌ في شباك الفتنة. لم يكنّ يشاهدنَ، لأنّهنّ قد تحوّلنَ من حاضراتٍ في المشهد، حيث أصلاً لم يكنّ هنَّ هنَّ، إلى الكائنات التي كنّ يشاهدنَها. لم تكن المسرحيةُ تُعرضُ أمامهنَّ، وإنّما كنّ هنَّ من يعرضنها لأنفسهنَّ بطريقة عجيبة. جالساتٍ في صفٍّ على مقاعدهنّ، تراهنَّ أحياناً يتنهّدن في صوتٍ واحدٍ، ووجوههنّ الصّغيرة الشّغوفُ، المتلاصقةُ، تهتزُّ نشوةً.

خاصةً منها وجهٌ، وجهُ صبيّة. كانت وجنتاها ورديّتين، وفمها واسعاً، والعينيان شديدتي الخضرة. والشّعر أحمر مسرّحاً بعناية. ومن شعرها تنزلُ خصلةٌ قاسيةٌ على رقبتها. بالطّبع كانت البنتُ ياسنت. يكفي النّظرُ إلى ملمح الرّضا والرّعب الذي جمّد وجهها، لكي نتعرّف عليها. إذ لم يتأثّر أيّ طفلٍ قدر تأثّرها بالمشهد الذي استغرقت فيه بكامل روحها.

ولمّا نزل السّتار، غشي المكان صمتٌ عظيم. ثمّ تكلّم خلفَ السّتار الصوتُ المتهدّجُ نفسُه.

قال: «أيّها الطّيبون، لقد انتهى العرض. والآن سيمرّ عليكم كلبي

t.me/qurssan

بيكدو، حاملاً الوعاء بأسنانه؛ سيأخذ عطاياكم. عاملوه بلطف. هو رفيق دربي الوحيد. إذ إنّ أطفالي رحلوا عن هذا العالم؛ وكان لي حفيدٌ لكنّ الغجر اختطفوه، مثلما حدث في القصّة. منذ خمسين سنةً وأنا أجوب قراكم أرقّصُ فيها العرائس. وحين أرحلُ، لن يأتيَ بعدي من يعرضها لكم. هذه آخرُ مرّةٍ تشاهدونها فيها يا أصدقائي. لأنّني صرت شيخاً طاعناً في السنّ، ولن أعود بعد الآن إلى هذه القرية. هذا المساء إذن أقول لكم: وداعاً! والآن جودوا على المسرح بقطعة نقدية، حين يمرّ عليكم الكلب».

فبكت القريةُ. تمخّطت النّساء بكاءً، ومسح الرّجالُ عيونهم، وعطس العمدة. ثمّ رفعت الصبايا أصواتهنّ معاً قائلات: «جدّي سافينيان، اظهر لنا مرّةً أخرى»

وكان صوتهنّ عذباً ومرجّعاً، حتّى أنّ الأب سافينيان خرج من تحت السّتار. تحرّك السّتار بدايةً، ثمّ برز الرأسُ. كان رأساً طويلاً أصلعَ؛ لكن حول الجمجمة الصّقيلة إكليلُ شعرٍ جميلٍ، ينزلُ فيختلطُ بلحية الشّيخ الغزيرة التي تنزل كالثلج. وكانت العينان صافيتين صريحتين؛ وحين قام الشّيخُ واقفاً بمشقّة، رقّ ثلاثمائة وجه.

كان يرتدي معطف ردنغوت عتيقاً، وقد لفّ حول عنقه وشاحاً.

كان يبدو فقيراً جداً، وعليلاً جداً.

فقيراً وعليلاً لدرجة أنّ الجمهور حين رأوه يخرج من حفرته بكثيرٍ من البساطة والكياسة، استولى عليهم التّبجيلُ، فصمتوا.

t.me/qurssan

مع أنّه لم يكن يبتسم، ولم يكن يلتمس ودّهم؛ لكنّه كان يحملُ، بلا تصنّع، ومن غير أن يدرِكَ، في وجهه الشّائخِ علامةَ نقاء.

وحين استوى واقفاً، تناهى صوتُ شخصٍ ما يشهق في الجو، بين أوراق شجرة الدّردار. كان الصوتُ قادماً من الأغصان الخفيضة. تطلّعت الرّؤوسُ جميعاً. إذّاك اكتشف الجمعُ غاتزو. كان يبكي ممتطياً صهوةَ فرعٍ من فروع الشّجرة. كان يبكي وقد تملّكه ضربٌ من الغيظ تجاه نفسه. يشعر بالعار لأنّه يبكي على رؤوس الأشهاد، أمامَ ثلاثمائة وجهٍ متطلّعة إليه، مذهولةٍ لمرآه هناك بالأعلى غارقاً في دموعه. ولكنّه كان يبكي، رغم كلّ شيء؛ ومن أسفل، كان جدّه سافينيان، وقد جمّده التأثّر، ينظر إليه بوجه خالٍ من أيّ تعبير، لفرط ما بدا له غريباً أن يعود إليه حفيدُهُ المخطوف نازلاً من السّماءِ.

ضاحت النّساء: انزل يا صغيري! سنعطيك نبيذاً مطبوخاً[1].

لم يكن الشّيخ يقول شيئاً؛ لقد أخرسه التأثّرُ. كان ما يزال يتأمّل حفيدَه وقد تدلّت قدماه وسط الأوراق. وكذلك كان غاتزو من أعلى الشّجرة يتأمّل باكياً جدَّه.

أسفل الشّجرة كان عليّةُ القوم: العمدة، والخوري، والكاتب العدلُ، والطّبيب، قد شكّلوا دائرةً، ويبتسمون للطّفل تشجيعاً لينزلَ. وكذلك فعل.

---

(1) نبيذ يسخّنُ ليزداد تركيزُه، وتضاف إليه مستخلصات نباتية.

t.me/qurssan

قالت الجدّات الحريصات: - على رسلك، لا تكسر عظماً من عظامك أيّها الشقيُّ الصّغير.

وكان الرّجال يهنّئون الجدّ سافينيان بهزّاتٍ من رؤوسهم.

يقولون: - انظروا، كيف يُحسنُ النّزول. ليس السّنجابُ نفسه بأمهر منه.

وحين انزلق غاتزو على جذع الشّجرة، وصار أمام العمدة، تنفّس الجميعُ الصّعداء.

على أنّ العمدة كان رجلاً طيّباً: كان اسمُه ماتيو فاريل. لم تشهد البلاد له مثيلاً. لذلك لم يندهش أحدٌ حين استدار العمدةُ صوبَ الحشد وقال بمودّةٍ: أنا من سيقدّم النّبيذ المطبوخ.

ارتفعت همهمةُ رضاً من النّفوس الثلاثمائة الحاضرة.

وواصل العمدة: - هيا بنا يا أبنائي، ولنَسِر بانتظام، الصغار في المقدّمة، ثمّ الصّبايا، وبعد الصّبايا النّساءُ، ثمّ نختم المَسير بكلّ النّاخبين.

استفاق الشرطيّ الرّيفي من نعاسه، وحمل طبلَه، وسار في مقدّمة الرّكب.

بعده سارَ العمدة، وعن يمينه الجدُّ سافينيان، وعن يساره غاتزو وقد استعاد اطمئنانه. كان يمسكُ كلّاً منهما بيدٍ.

ثمّ تبعهم، في صفٍّ واحدٍ الرّجال الخمسةُ، عليّةُ القوم: الخوري، والموثّق، والطّبيب، والملاح، وبائع التّبغ.

t.me/qurssan

ثمّ القرويون، وفي مقدّمتهم الصّغار. في الصفّ الأوّل ترى ياسنت بعينيها الزّرقاوين وجديلتها. كانت تنظرُ أمامها وقد اكتست ملامح رصينة.

ثمّ في الذّيلِ الكبارُ.

بهدوء كان الشرطيُّ الرّيفيّ يقرع طبله بيديه المسنّتين. ورغم أنّه كان طاعناً في السنّ، فقد كان يقرع بأطراف عصَوَيه، لحنَ مارش مرحاً. وعلى إيقاع لحنه كان الجميع يتمايلون رغماً عنهم.

كذلك تابعتُهم يمرّون جميعاً، وجوههم مستبشرة، والفتياتُ اللاتي انتظمن بحسب طول قاماتهنّ، كنّ يترنّمن متمايلاتٍ من البهجة.

تقول العجائزُ: منذ خمسين سنةً لم نشهد حفلاً مماثلاً.

ويؤمّنُ الشّيوخ على كلامهنّ بإيماءات من رؤوسهم.

والشّبابُ يضحكون من غير أن يدركوا لضحكهم سبباً.

وحين مرّ آخرُ صفٍّ، رأيتُ الكلبَ. كان يتبعهم والإناء في فمه، بهيئةِ الكلب المعتاد على أن يَتبَع. خطمُه في إثر كعوبِ الشّيوخ، يتبعُهم خبَباً. وإن كان في ذيل الرّكب، إلا أنّه لم يكن يبدو أقلّهم رضاً.

مرّ بدوره، وبقيت وحدي.

لم ينتبه لوجودي أحدٌ. حتى غاتزو لم ينتبه. كان غاتزو يمسك باحترام يدَ العمدة الموقّرة، ويبدو مأخوذاً بذاك التّشريف. هل

t.me/qurssan

رآني؟ ربّما لم يكن يرى شيئاً، لأنّه كان تلك اللّيلة، مَلِك الموكب. أمّا أنا، وقد رأيتُه، وكنتُ أحبّهُ، فقد شعرت بالغمّ يثقلُ صدري، والدّموع تصعد إلى عينيَّ.

لم يبقَ من الحفل إلا مقاعدُ الدّراسة الفارغةُ، والمسرحُ الصغيرُ المرسومِ على ستاره حمارٌ.

انطفأت الفوانيسُ على الأغصان، فانوساً فانوساً، وبالأعلى، في السّماء البيضاء كالحليب، كان يبدو أنّ القمر يجنح نحو التلال.

وكنت أشعر أنّني وحيدٌ غاية الوحدة، شقيٌّ كلَّ الشّقاء، حتّى أنّي ما كنت أدري ما عليّ أن أفعل.

خلف المسرح المهجور نسوا إطفاءَ شمعةٍ. كانت تحترقُ مرتجفةً، فيرسم لهيبُها الخفيُّ على السّقفِ الرّقيقِ هالةَ نورٍ واهنة وعجيبة.

فتَنتني الهالةُ، وكنت على وشك التقدّمُ صوبها، فإذا برجلٍ نحيلٍ ينبري من جانب المسرح.

كانت قامةُ الرّجلِ تعلو السّقفَ النّسيجَ. استند لا مبالياً إلى أعمدة البناء البسيط، وأخذ يتفحّص بعنايةِ كلّ ركنٍ في السّاحة.

وقع بصرُه عليَّ. كان بارغابو!

لم يحرك ساكناً.

فلُذتُ بالفرار.

t.me/qurssan

وحدة باسكاليه

t.me/qurssan

t.me/qurssan

لا أدري حقاً كيف بلغت المرسى. طيلة ركضي أو سيري، لم أكن أشعر بشيء. لكن ما إن بلغت ضفاف الماء، حتّى تملكني إحساس عجيب بالصمت والوحدة.

لم يكن يتحرّك شيء في البِرك، ولا في الأجواء. كانت المياه تبدو كأنّها هي من رصاص.

فُرشة من رطوبةٍ تغطّي المنظر الحزين حيث تلمع، خلل عيدان القصب، نجمةٌ وحيدة. انصرف القمر إلى زيارة عوالم أخرى. وصارتْ الجزيرة تبدو وسط المياه الكثيبة مثل قاربٍ من ظلمات. أرعبتني لدرجة أنّني لم أجرؤ على البقاء في السّاحل حيثُ كان المركب راسياً. أطلقتُه، وحرّكته معتمداً على عصايَ الثقيلة، حتّى ابتعد عن البرّ.

قلت لنفسي: «ما دام كلّ شيء قد انتهى، فالأَولى أن أترك القارب يسير منجرفاً على غير هدى».

t.me/qurssan

لكن القارب لم ينجرف إلا قليلاً. لم يحرك صفحة المياه الرّاكدة تلك اللّيلة أيّ تيّارٍ. ولمّا ابتعد القارب من الضّفاف، غرق في ضربٍ من الخدر السّحريّ، حيث ما لبث الاندفاعُ الواهن الذي كان يدفعه أن خفتَ ومات.

تلفّعت بغطاءٍ ونمتُ في قعر المركب.

ومذّاك صرتُ أترقّبُ مصيري. كنت أعرف أنّ تلك اللّيلة هي آخر عهدي بالنّوم على المياه النّاعسة. لذا أردتُ أن أقضيها كما قضيتُ سابقاتها، أي أن أنام راقداً على ظهري في قعر مركبي، أتنفّس عبر الألواح الرائحةَ اللّيلية للمياه العذبة، الرائحة التي منها أستمدُّ، رغماً عمّا يتهدّدني من أحلام، الكثيرَ من السّلام والرّاحة.

حين استيقظتُ كانت السّماء قد ارتفعَت. وقبل حتّى أن أفتح عينيَّ، أدركت أنّ معي بالقارب أحداً.

شعرت برائحةٍ تداعب وجهي: رائحة قهوة مغلاّة، وخبزٍ ساخن، وغليون مَرِح.

قلت وعينيَّ ما تزالان مغمضتين: – متى ننطلق يا بارغابو؟

أجابني بارغابو: – إه، قريباً! نشربُ قهوتَنا، وننطلق.

قمتُ من مرقدي.

في مقدّمة المركب، بارغابو. في فمه غليونه الطّويل. مقرفصاً أمام موقد (لا أدري من أين أتى به)، يصبُّ في إناء فخّار كبير قهوةً مغلاّة.

t.me/qurssan

صاح: - تعال يا بُنيّ! إنّ القهوة تدفئُ الجسمَ، وتزيل خمول النّوم.

وكان هو نفسه يشربُ بأسارير مبتهجة، وقد بسط على الخبز يديه القاسيتين، يدَي الرّجل البريّ الماهرتين في معالجة الطّعام.

أعادت إليّ القهوة شيئاً من رباطة جأشي.

سألته: - وعمّتي مارتين، يا بارغابو؟

- العمّة مارتين تنتظرك.

- هل بكت؟

- بكت.

طمأنني كلامه.

أضاف: - والدك لن يعود إلا نهاية الأسبوع.

فكّرتُ: «حمداً لله!».

يبدو أنّ الأمور قد بدأت تعود إلى مجراها.

أخذتني الجراءةُ، فسألتُه:

- هل خفتَ عليَّ يا بارغابو؟

نظر إليّ بارغابو مذهولاً، ثمّ صاح: - عجباً!

لكنّه لم يفصّل في سبب عجبه. من نظراته، ونبرته، أحسستُ أنّه كان راضياً عنّي بالجملة.

t.me/qurssan

ثمّ أعلنَ عن الانطلاق، وإذّاك فقط انتبهت إلى أنّنا، أثناء نومي، قد بدّلنا مرسانا. لقد رسا المركبُ في موضعٍ آخرَ من الشّعبة الميّتة، موضعٍ لا يفصلُه إلا هورٌ، رحبٌ بدرجةٍ ما، عن التيارِ بقاعِ النّهر. وكنتُ أراه، عبر نبات الأسل، ينسابُ صافياً في دفقاتٍ سريعة.

لصق جناح الزّورق المتين كان يطفو زورقٌ صغير. زورقٌ هيّنٌ، يكاد يكون لا شيء: ستّةُ ألواحٍ، بلا مقعدٍ؛ لكن ثمّة مجدافان هائلان، ولتكتمل الأبّهةُ: شراع.

قال بارغابو: - اركب. سوف نترك هنا دجاجتك المائية! إنّها أثقل من أن تصعد هذا التّيار. سأعود لأخذها.

بدّلتُ المركبَ بلا حماس.

صاح بي: - تقدّم إلى الأمام.

وكان عليّ أن أجلس في قاع المركب مباشرةً.

قال برضا: - الرّيح جيّدةٌ.

ثمّ رفع الشّراع. وكان شراعاً بالياً، مرقّعاً؛ لكن ما إن امتلأ هواءً حتّى اصطفق. وإذّاك جنح الزورقُ إلى الماء الذي تدفّق حتّى شارفَ شفير المركب؛ وانطلقنا.

بصدرٍ عارٍ، تناول بارغابو المجدافين وجدّف بذراعيه قوياً. كان الزّورق يسير محاذياً سطح الماء، بحيث يرتفع الموج أحياناً فيلامس مرفقيَّ. وكنتُ أخشى أن أراه يغرق في التيار تحت ثقل الشّراع. لكنّه كان متيناً. كان بارغابو، بلا مبالاة، يواجه قوى النّهر،

t.me/qurssan

مجدافاهُ في يده، والرّيحُ في ظهره. كنّا نعبرُ الدّوامات السّوداء، ونقفزُ، متأرجحين دائرين، من فوق المياه المضطربة. كان كلّ شيءٍ ينضح بالفرح، بارغابو، واللُّججُ المشبعة هواءً، والرّيح التي تسير بها يشتهي زورقُنا، والسّماء التي تعبرُها الطّيورُ، وغبارُ الأراضي الشّاطئية التي كان ينبعث منها الدّخان وقد أدفأتها الشّمسُ في عزّ الصّباح، بين المياه والتلال الزّرقاء زرقةً صافيةً. وفي غمرة انتشائي بالهواء القويّ الذي كان مثلَ طائرٍ بحريٍ يحلّق فوق النّهر، استسلمت للذّة شرب الرّيح.

حوالي منتصف اليوم، نزلنا الضّفة اليسرى. وفيها تناولنا غداءنا. قنص بارغابو بطّةً. وكان يملك بندقيّة بطٍّ هائلةً. وكانت البندقيةُ سلاحاً محترماً يعمل بواسطة الصّوانِ، لذا حين تنطلق الرّميةُ منها، تترك خيطاً طويلاً من شرارةٍ حمراء والكثير من الدّخان، وتفوح في الأجواء نفّاذةً رائحةُ الملح الصّخريّ والنّار.

قضينا اللّيلة في العراء.

وفي اليوم التّالي سرنا- كما في اليوم السّابق؛ ولكن هذه المرّة قربَ الضفّة، في مياه هادئة.

عند مشارف المساء برزت لنا الجزيرةُ. كان بارغابو مُقِلاً في الكلام. لكنّه قال لي وهو يشير إلى الجزيرة:

- لم يعد ثمّة أحدٌ. يا صغيري. لقد خافوا.

ثمّ داعب برفقٍ بندقيّته. أظنّه كان راضياً عن نفسه.

t.me/qurssan

سألتُه: - لم يبقَ شيء؟

هزّ رأسَه وصمتَ. وبدا لي أنّه يخفي أمراً. لكنّني لم أجرؤ على أن أسأله.

جاوزنا الجزيرة، فملنا بالزورق، ولامسنا الشّاطئ برفق.

بلغنا المنزل مع حلول اللّيل.

عبرنا الحديقة. تحت تعريشة الشّرفة كان مصباحٌ موقداً. وكان يضيءُ المائدة. وقد مُدَّ على المائدة المفرشُ أبيضَ ناصعاً، ووُضعت الأواني: ثلاثة صحونٍ، وإبريق ماءٍ، وكوزَي نبيذ صافٍ[1]. وفي سلّةٍ وُضع الخبزُ وسكّينهُ الكبيرة. كان الخبزُ أسمرَ. في المطبخ، عبر الباب الموارب، نلمحُ الموقدَ، وعليه مقلاتان وقِدران كبيرتان تغليان بهدوء.

وأمام الموقد العمّة مارتين. جالسةً على مقعدٍ عتيقٍ، وقد لبست مئزراً أبيضَ، وعقدت قبّعة البيكيه عند ذقنها، ووضعت يديها على ركبتيها، جالسةً تراقب وجبة المساء بهيئةٍ ساكنة وجادّة. وجهُها الأسمر يوحي بالاطمئنان. كانت تنتظر الطّفل الغائب. ربّما ظلّت كلّ مساءٍ توقد هذه النّارَ، وتُعدّ هذا الطّعامَ، وتضعُ هذه المائدة، وتعلّقُ هذا المصباح تحت التعريشة، من دون أن تيأسَ.

والآن، وقد عُدتُ، فقد صارت تبدو وهي أمام هذا الطّعام الطيّب الذي أعدّته لي بحبٍّ، بمثابة روحِ منزلِ الأهل. لا ريب

---

(١) نبيذ انتهت عملية تخمره، ويتنظر ان يخلط بانبذة أخرى قبل ان يُعاد تخميره.

t.me/qurssan

في أنّ سنّي آنذاك كان أصغر من أن يسمح لي بإدراك هذه الأشياء الخطيرة، لكن الشّعور، الدّينيّ تقريباً، الذي كان يصدر عن هذه المرأة العجوز التي أشاركُها الدّمَ، هذه المرأة المخلصة التي ظلّت تترقّبُ عودتي؛ ذاك الشّعور كان يرجّفُ قلبي.

فلم أستطع كبحَ نحيبي. كانت تنتظرني، وبرفقٍ نادتني:

- باسكاليه، تعال هنا يا صغيري الجميل، تعال لأقبّلك.

دخلتُ إلى المطبخ تسبقُني دموعي.

ظلّ بارغابو عند العتبة، وبندقيّتُه في يده.

لُذت بصدر العمّة مارتين تضمّني إلى قلبها. وأغدقت عليَّ بنعوت لطيفة، محبّبة لديها: «أيّها الوغدُ الصّغير! أيّها الهرّابُ، المكّارا»، وما لا أذكُره من نعوت. وقبّلنا بعضنا بعضاً بضراوة، أمام النّار والقدور التي كانت تنبعث منها، كأنّما لتزيد من اطمئناني وهدوئي، أبخرةُ الطّعام الذي لا شكّ في أنّه يُطبخُ منذ الصّباح، منسّماً بالزّعترِ ومضمّخاً بالبهارات. وأنا، وإن كنت ما أزال أبكي، إلّا أنّني كنتُ أشعر بالجوع.

أكلنا في الهواء الطّلق، هادئين.

وبعد ذلك ذهبت للنّوم، لكن العمّة مارتين ظلّت ساهرةً.

انصرف بارغابو في ساعةٍ متأخّرة.

فقد ظلاّ يتوشوشان طويلاً على التِراس، بعدما أطفأ المصباح.

ومن فوق، عبر النّافذة المفتوحة، كان يتناهى إليّ صوتُهما المكتوم

t.me/qurssan

كمناجاةٍ. لا شكّ أنّهما يتحدّثان عنّي. وقد نمتُ خليَّ البال، إذ كنت مطمئناً إلى أنّهما يحرسان نومي.

عاد والدايَ أسبوعاً بعد ذلك. ومثلما خمّنتُم، ضربتِ العمّةُ مارتين الصّمتَ حولَ ما وقع. لكنّها لم تغفل الإكثار من الشّكوى، على عادة الأعراف العائلية. تلك الأعراف التي تفرض عليها أن تشكوَ، خاصّةً حين يكون والدايَ قد غابا وعهدا إليها بإدارة المنزل في غيابهما. إنّه لأمرٌ متعارفٌ عليه. لكنّه يمرّ بلا عواقب. وكانت هي أيضاً تعرف ذلك؛ لكن لا بدّ من إتمام طقوسِ الشّكوى واللّوم المقدّسةِ بإخلاص.

وكان لي نصيبي من أسبابِ الفوضى بالمنزل.

قالت العمّة مارتين مشدّدة: لقد عانى، طيلة الوقت، من صعوبة النّوم. إنّ الصّغير يقرأ كثيراً، والقراءة تهيّجُ أعصابَه.

أمّن والدي على كلامها مصدّقاً: - الحقّ أنّه يقرأ أكثر ممّا ينبغي.

ثمّ التفت إليّ وأضاف: ينبغي أن تلهو يا باسكاليه، إنّ سنّك هي سنُّ اللّهو.

جسَّ نبضي، فألفاه متوتّراً. ثمّ فحص عن لساني، فألفاه أبيضَ.

قلقت أميّ.

قال أبي: - اضطرابٌ خفيف. طبعاً! إنّه جالسٌ طوال الوقت.

t.me/qurssan

ثمّ صادروا منّي كتبي، وسقوني شراب نبات السنا الأسكندراني. تناولتُه مرغماً، لكن كان لا بدّ لي من أن أمرّ من هنا. وبالمحصّلة لم يكن الثمن الذي أدّيتُه باهظاً.

ولكي تواسيني العمّة مارتين، كانت تحملُ إليّ حلوى بالعسل حضّرتها خفية.

على أنّ العلاجَ المطهّر الذي وُصف لي، بدلاً من أن ينعشني، ولّد في مناطقي الحيويّة فتوراً متعذّر التّفسير. متعذّر التّفسير، لأنّ كلّ واحدٍ أراد أن يفسّره على هواه. بالنّسبة إلى أبي كان الأمر اعتلالاً في الكبد؛ وبالنّسبة إلى أمّي، في الطّحال؛ أمّا العمّة مارتين فرأته اعتلالاً في الرئة. تقول: «إنّه يتنفّس بصعوبة. أنصتوا إلى تنفّسه. لم يعد المسكين باسكاليه إلا تنهيدةً».

صحيح أنّني كنت كثير التنهّد، ربّما بسبب الوهن، أو ربّما لسبب آخر؛ لكنّني لم أكن أعرفُ أكثر ممّا يعرفُه ذويَّ، وذلك لفرط ما كان اضطرابي مبهماً.

لكنّ الاعتلال ما فتئ يتعاظمُ، وإن لم يتعيَّن.

أعادوا إليّ كتبي. قال والدي متذمّراً: «إن كان بحاجةٍ إلى كتبه، فليقرأها!» لكنّني لم أقرأها. صارت تضجرني.

دخلنا شهرَ يونيو/ حزيران. ثمّ انتقلنا من يونيو/ حزيران إلى يوليو/ تموز، ومن موسم الفواكه إلى موسم الحصاد، وكان الطّقس رائعاً. أصباحٌ نديّةٌ، وليالٍ صافية، وشمسٌ خفيفة، وأماسٍ جميلة. لا

t.me/qurssan

بل إنّ حتّى شهر أغسطس/ آب ظلّ يدفئ الرّيف من غير أن يحرقه، فلم يجفّ به، ولا ليومٍ واحدٍ، أيّ نبع من الينابيع المنعشة.

ومع ذلك ظللت على فتوري. يثقلُ وجوديَ ضجرٌ متعذّرُ التّفسير. تطاولت عليَّ النّهاراتُ. فكنت أهيم، هنا وهناك، خاملاً، حول المنزل، أو في البستان، أو تحت أشجار الدّلب العتيقة.

وأحياناً كنت أضيق بالمنزل وأرجائه، فأذهب لأجلس على الطّريق، عند حافة خندق. وهناك أمكث منتظراً، بلا لذةٍ أو أمل.

كنت أودُّ لو يأتي أحدٌ، أيّاً كان: ساعي البريد، أو حيوانٌ، أو كلبٌ، أو لم لا الحمار؟

وما عاد بارغابو يزورنا. ماذا حلّ به؟ لم يعد يأتي على ذكره أحدٌ. مرّ غيابُه من غير أن يخلف أيّ أثر. مع أنّ أيّام الحرّ، هي الأيام التي كان يأتينا فيها، حاملاً أسماكاً، مرّةً في الأسبوعِ. والآن ما عاد ثمّة بارغابو، ولم يأبه لاختفائه أحد.

لكن أنا كنت أفكّرُ فيه، وكثيراً ما كان التّفكير فيه يحرمني النّومَ، يبعث في نفسي الحزن.

تفاقم حزني شهرَ سبتمبر/ أيلول. ولم يبهجني قطافُ العنب. مع أنّ القطاف كان قائماً على قدمٍ وساقٍ، وكانت العناقيد تخمّرُ في أحواض هائلةٍ، بشكلٍ لم يُشهد له مثيلٌ، بحسب ما أتذكّر، في منزلنا.

t.me/qurssan

كانت السّنة مبشّرةً بربيعٍ وفير، إذ إنّ أكتوبر/ تشرين الأوّل كان جافاً، ونوفمبر/ تشرين الثاني بالكاد أمطرَ. لم يزمجر النّهرُ، وظلّت مياهُه عند مستوى معقول، فلم تجتَح أرضنا التي حرثناها بسلام.

غير أنّ كلّ تلك الأفراح التي كانت تصيب نفوسَ أهلي، لم تكن تريح نفسي أنا.

كنت كئيباً لدرجة أنّ حتّى برد أعياد الميلاد، البرد الصّريح، السّديد، الذي ينعش الرّوح عادةً، لم يؤثّر فيّ بشيء.

قضيتُ شتاءً طويلاً، مرهقاً، كئيباً. وكثيراً ما كنتُ أفكّرُ في غاتزو. أين هو؟ أحياناً، ساعة الغروب، يمرُّ سربٌ من طيور البطّ، عالياً في السّحاب، محلّقاً في شكلٍ مثلّث مخترقاً زوبعة. فتتغلغلُ صيحاتُه البريّةُ فيَّ.

وإذ رآني والدايَ صموتاً، صارا هما أيضاً صموتَين. كانا قد طرقا معي كلّ السّبل، ولم تُفلح منها سبيلٌ. فانكفآ على نفسيهما غارقين في الفِكَر.

ثمّ عاد الرّبيع، ومعه الرّياح الدّافئة، وأوّل تحليقٍ لطير الهازجة، وتغريد الشّحرور. وكنت أنا أتنهّدُ. ولم أكن أدري هل تنّهدي من أثر الرّاحة أو أثر الحزن.

تقول العمّة مارتين: – إنّه يتنهّد. لكن، لعلّها تنهيدةُ الرّبيع. أنا أيضاً أتنهّد. وعلى الرّغم من أنّني عجوزٌ، إلا أنّني ما زلت أتنهّد تنهيدةَ أبريل/ نيسان.

t.me/qurssan

ولكي تسهر عليّ أقنعتهم بأنّ ينقلوني إلى غرفةٍ بجانب غرفتها بالأسفل.

أحياناً، إذا ما تحرّكتُ على فراشي النّاعم المصنوع من قشّ الذرة، كانت تنادي عليّ باسمي، من خلف السّتر لكي تطمئنَّ ما إذا كنت سهرانَ أم أنّ حلماً يهزني. كان نومها خفيفاً بشكلٍ لا يصدّق.

لذا، وحتّى لا أوقظها، لأنّها كانت عجوزاً ومُجدَّدَةً، فقد كنت أحرصُ حين يجافيني النومُ ليلاً، على أن أبقى ساكناً في سريري. فكنتُ أسمعُ تنفّسها مثلَ خيطِ حياةٍ يمرُّ.

كانت نائمةً.

وذات ليلةٍ رأيتُ حُلماً. وها كيف حدث.

كنتُ في بداية النّوم. قطعاً لم أكن مستيقظاً، لكنّني أيضاً لم أكن قد نمتُ بعد، على الأقلّ لم أكن نائماً حقاً. كنت متيقناً من ذلك، لأنّ نافذتي تُركت مواربةً، وعبر شِقّ الفتحة كنتُ أبصرُ نجمتين صغيرتين تتلألآن. بدا لي أنّ شقّ الفتحة ما انفكّ يزداد اتّساعاً، وبقدر ما يتّسعُ يُفصح عن سماءٍ أرحبَ ونجومٍ أكثرَ تجتاح غرفتي. ثمّ ما يلبث الاجتياح أن يتّسعَ حتى تنمحيَ الجدرانُ، فتحوطني من كلّ جانبٍ السّماءُ عاريةً. وشيئاً فشيئاً يتشكّلُ منظرٌ غريبٌ، مرصّعٌ بالأجرام واللآلئ. كان المشهد قعرَ نهرٍ ليليّ برّاقاً، مضاءً من تحت إضاءةً غامضة، بواسطة نيرانٍ خفيّة. ضوؤه الشّاحبُ يغمر عالماً

t.me/qurssan

ضاجاً وسريّاً، عالماً من النّباتات والحيوانات المائية، وكنتُ أراني فيه أستنشق جذور الجزيرة التي تغوص أشجارُها الهائلةُ تحت مملكة المياهِ، أعمقَ ممّا نتصوّرُ. تنبثق وحوشٌ ذوات قشور فوسفورية، من أعماقِ مخابئها، وبعضُها يحمل فوق رؤوسه الشّوكية إشارة ضوءٍ خضراء وذهبية. كانت تهيمُ، بمظهر شرس وأريحيّةٍ، عبر طحالب عملاقة ومروج مزهرة بنباتات عديدة الأوراق. وأحياناً يجرُّ التيّارُ مخلوقات لا يمكن تخيّلُها، مخلوقات بأجسام حليبية، وأشكال متقلّبة، ينبعث منها نورٌ مشعٌّ ما يلبث أن يختفي سريعاً. وترى نجماتٍ حيّةً تتحرّك ببطءٍ على أطرافها الخمسة الزرقاء، بينما تسبح الأصدافُ الشّفافة لصدفيات مجهولةٍ، عبرَ غاباتٍ مرجانية هشّة.

كان هذا العالم الذي كشفَه الحلمُ فيّ، يُقلق نومي، وفي غمرة عجزي كنت أصبو إلى أن أستلّ نفسي من تلك الأماكن غير الواقعية، حيثُ تترصّدني من كلّ جانبٍ حيواناتٌ متربّصةٌ ومؤذية. ولا بدّ أنّ رغبتي تكون قويّة جداً (أو ربّما أن السّماء تمدّني بعونٍ) إذ شيئاً فشيئاً تتلاشى تلك الأشكال التي أتوهّمُها، ومحلّ جمالها المتوحّش غير البشريّ، يحلُّ بهدوءٍ فجرٌ ألوف، وسماءٌ صباحية، والمنظر الرّبيعيّ على الرّيف، حيثُ يجري متكاسلاً صديقي النّهرُ. وهناك أهيمُ مرِحاً في مواقع معروفة: جزيرة القصب، والجرفُ، والشّاطئ حيث يقطُر النّبع، وغابة السّنديان. هناك كان كلّ شيءٍ يبهجني: الطّيور، والزّهور، والحياة الحرّة، وخاصّة الجَوْن الصّخريّ الصّغير، حيث كثيرا (كما أذكر) ما أطلت المكوث أيّامَ المياه النّاعسة، لكي أتأمّل صفاء مياهه.

t.me/qurssan

كان مكاناً مميّزاً. إنّ طبيعة الصّخور البلّورية قد شكّلت فيه قيعاناً صافية تروقُ فيها اللُّجج الهادئة.

كانت المياه من الشّفافية بحيث إنّ النّور كان يتحرّك فيها بالسلاسة نفسها التي يتحرّك بها في الهواء، وكانت الأعماق تضحك مرحة في الشّمس. وفي الرّمل الأسمر ترى حصىً من كسور الرّخام السّماقي الأزرق والمرمر الورديّ المخدّد. وتحت الصّخرة، بين الحصى، ترتفع أحياناً فقاعةٌ، هي علامةٌ على شريانٍ مائيٍّ يغذّي خفيةِ القعرِ الصّدفيّ الصّافي. كانت تلك حصّة الأمطار والثلوج التي تساقطت أثناء فصل الشّتاء على التّلال. وبلا شكّ هي ما يمنح هذا الجزء الصّغير من النّهر، في هذا المكان المعزول، ذاك الصّفاء الفريد وتلك الرّائحة، رائحةَ المياهِ المنعشة.

لذا كانت الحيوانات المائية قد ألفت المكانَ، وأقامت به. وأتصوّر أنّها قد وجدت فيه ملاذاً، ضرباً من الفردوس السّائل المنذور لمُتعِها ولهوِها. هنا لا تخشى مفترساً، على الأقلّ هذا ما أظنُّه.

تحت نبتة حوذان الماء تقيم قبيلةٌ من الجِداء شاحبةُ اللّون حتّى تكاد تكون شفّافةً. كانت حيوانات متردّدةً ونشيطةً في آن، تختفي ما إن تُزعج خلوتَها أدنى حركة.

أحياناً تغري برودة المياه سمكة تّروتة، فتتوقّفُ لتستريح في القعر الصّدفيّ، مثلما تطيلُ المكوثَ فيه سمكاتُ شبوطيات فضيّة صغيرة، متنزّهة تتلوّى من المتعة. وأحياناً أقلّ، كانت سمكة أبو شوكة تأتي مبرزةً درعها البرّاق. وإذا ما صادف أن شردت سمكةٌ

t.me/qurssan

تنش بألوانها القزحيّة الذّهبية، عن أماكن صيدها، فاقتحمت هذه اللّجة الصافية، فإنّها تحوم متصيّدةً، متردّدة، ثمّ ما تلبث أن تنصرف عن المكان إلى مواقع أثرى، بعيداً عن هذا العالم المعدنيّ الصّغير. أمّا ضفدعة الشّجر، المعتادة على مثل هذه المياه، إذ هي صديقة الأعماق الصّافية، فإنّها ترتمي، فاردةً أطرافها الأربعة، في الماء، فتغوص حتّى تبلغ القعر الرّمليّ النّاعم؛ ثمّ تصعدُ وقد صارت خضراء خضرةً مذهلةً. ثمّ تضع على سطح الماء حنجرتها الرّقيقة وعينيها الذّهبيّتين اللتين تبدوان مفتونتين بوجهي السّاكن، فتسكُنانِ من البهجة...

وذاك السّكون المضاعفُ الذي رأيتُه في حُلمي، هو نفسُه ما يبدّدُ الحلمَ. فأنام، أنام حقاً.

ويمضي عليَّ في النّوم وقتٌ طويلٌ قبل أن يأتي أحدٌ ما ويخمش النّافذة، فأستيقظ.

لا أشعر بالخوف، لكنّ قلبي يبدأ في الخفقان فوراً.

أقول لنفسي: «إنّه هو، لقد عاد».

أثب من سريري وأهرع إلى النّافذة.

أسألُ: أهذا أنت يا غاتزو؟

فيهمسُ بِاسمي صوتٌ. صوتٌ أجشُّ بعض الشّيء، لكنّني أستطيع التعرف عليه.

يقول غاتزو: - لديّ الكثير لأحكيَه لك.

تتنهّدُ عمّتي مارتين في غرفتها.

t.me/qurssan

أقول لغاتزو: - انتظر، يستحسنُ أن نذهب إلى البئر.

وأخرج.

نقصد البئر. الجوُّ رائق. القمر يرتفع هادئاً عند طرف المرج الدّافئ العطِر.

وإذّاك بدأ غاتزو الكلامَ.

حكى لي حكايته من البداية إلى النّهاية.

وكنت أنصتُ إليه متأثّراً.

فجأةً صمتَ.

سألته: - ثمّ؟

اكتفى بالقول: - إنّ جدّي سافينيان مات.

أمسكتُ بيده.

في تلك اللّحظة فتحت العمّة مارتين مصراعي نافذتها برفق. هل رأتنا؟

نادتني: - باسكاليه، مع من تتحدّث يا صغيري؟

قمتُ تلقائياً، وسحبت غاتزو معي صوب المنزل.

صاحت العمّة مارتين: - عجباً، معك أحد؟

أجبتُها: - إنّهُ صديقي غاتزو.

زفرت بصوت عالٍ: - أوه! إنّ له رائحةً بريّة!

t.me/qurssan

تشجّعتُ فأضفتُ: - إنّه وحيدٌ في هذا العالم يا عمّتي مارتين.

غمغمَتْ بكلماتٍ.

ثمّ قالت: - ينبغي أن يدخل؛ وغداً ننظّفه من رأسه إلى قدميه.

دخل غاتزو.

أوقدت العمّة مارتين الشّمعة.

قالت حين أبصرت غاتزو: - إنّه ولدٌ قويّ. يبدو صادقاً. سوف نحدّث أباك في الأمر.

لا أحد يدري ما قالته لأبي. لكنّ أبي رقَّ: والربُّ تكلّفَ بما تبقّى.

وهكذا صار غاتزو أخي.

أمّا قصّتُه، فربّما أحكيها لكم ذات يوم...

t.me/qurssan

"رسوا، وسحبوا قاربهم، ليخفوه. ثمّ أخرجوا منه طفلاً. كان ولداً في عمري. وكان مقيّداً. رفعه أحد الرّجالِ وحمله على كتفيه. أبصرتُ وجهَه. كان كالحاً كوجه خاطِفيه، ويماثلُهم شراسةً. لكن لا شيء فيه يشي بالفزع. كانت عيناه مغمضتين، وفمه مزموماً، كأنّما هو حجرٌ. حمله الرّجالُ الأربعة معهم، واختفوا تحت الأشجار (...) على أنّ كلّ ذلك قد جرى منذ زمنٍ بعيدٍ، وأنا الآنَ شيخٌ مسنٌّ. لكنّني، ما طالت بي الحياةُ، لن أنسَى أبداً أيّامَ سنّي يفاعتي، تلك التي عشتها على المياه. إنّ تلك الأيّام الجميلة حاضرةٌ في كامل طراوتها. وما رأيته يومئذٍ، ما زلت أراه إلى اليوم، وكلّما خطر ببالي، أعادني ذاكَ الطّفلَ الذي أسعدَه، لحظة استيقاظه، بهاءُ عالم المياه .."

****

نريد أن نقود أحلامَنا، سائرين في إثر حالمٍ عظيم: هُنري بوسكو. فباقتفائنا أثرَه نستطيع أن نكشِف أعماقَ رؤى طفولةٍ حُفظَت في الأحلام. مع بوسكو نلجُ متاهةً نتقاطع فيها الذّكرياتُ بالأحلام.

غاستون باشلار

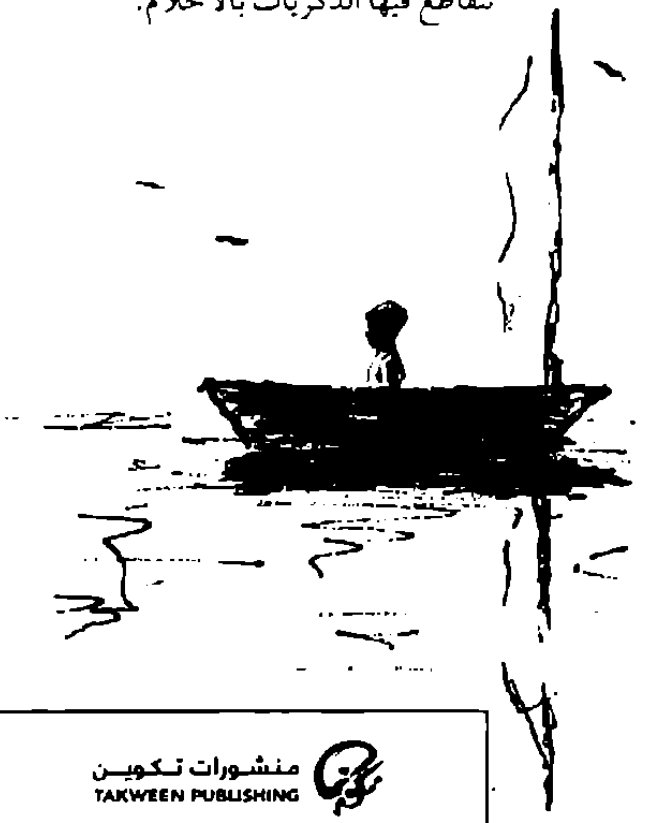

هُنري بوسكو

الصبيُّ والنّهر

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com

t.me/qurssan